

في رحاب التفسير

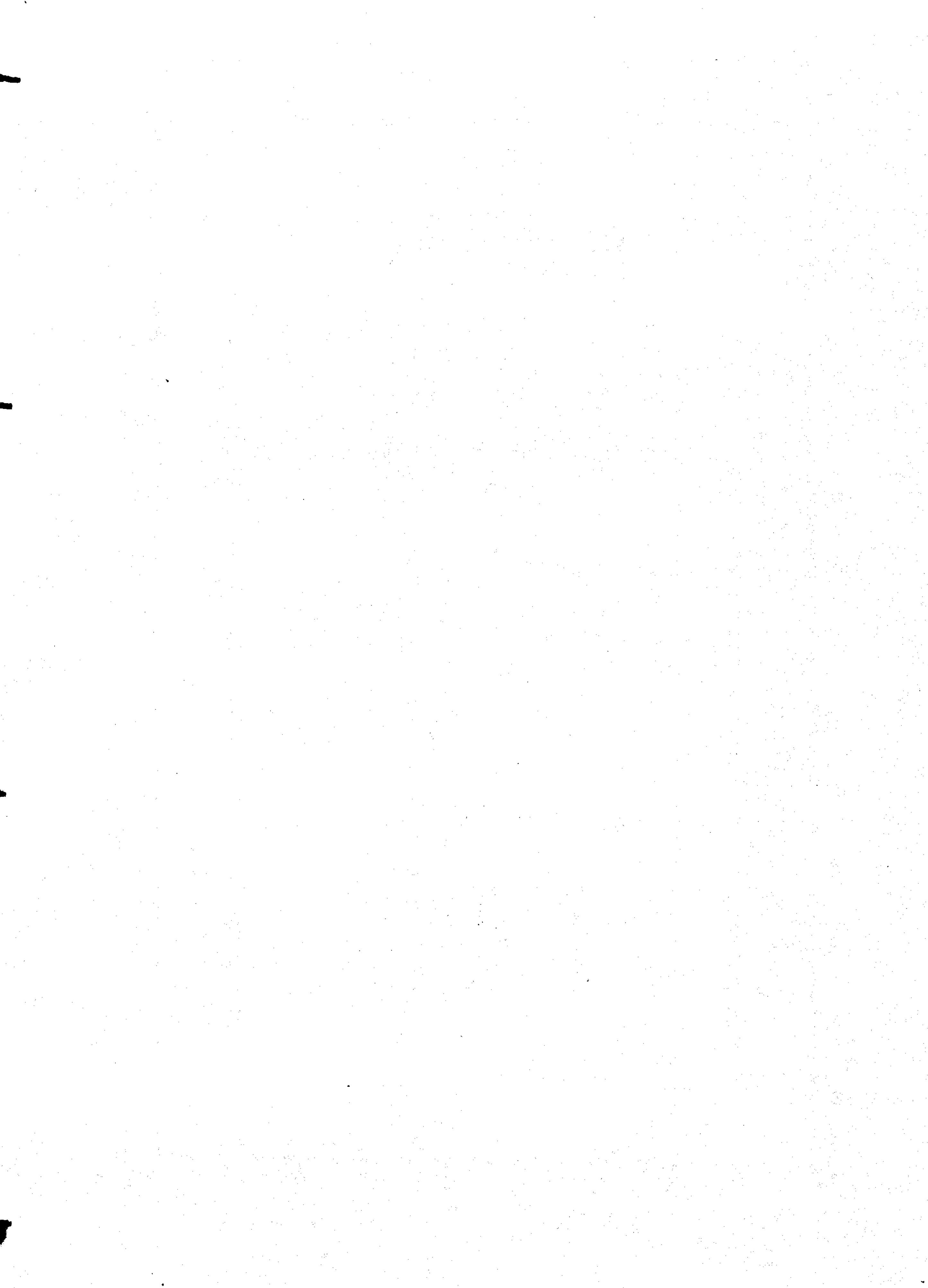
الجزء الثالث

سورة البقرة

من الآية رقم ٢٥٣ / ٢٨٦

سورة آل عمران

من الآية رقم ١ / ٩٢



٦ - إن الظفر لايتم للقائد إلا إذا أطاعه جنده فى كل مايأمر وينهى وعلى هذا مضت قوانين الجندية فى العصر الحديث .

٧ - إن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة إذا اختبرت وثبتت وأطاعت رؤ ساءها ، والتجارب والمشاهد تدل على صدق هذا .

٨ - إن من سنن الله فى خلقه دفع الناس بعضهم بعضا ، وهو المعبر عنه فى العصر الحديث (بنظرية تنازع البقاء) ، ومن ثم قالوا إن الحرب طبيعية فى البشر ، إذ بها يبقى الأصلح والأمثل وإلى هذا يشير سبحانه : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء،وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ أى أن سنة الله أن يقذف زبد الباطل الضار بالمجتمع ويمحوه من الوجود ، ويبقى إبريز الحق النافع الذى ينمو فيه عمران العالم ، ويحفظ به الخلق من أعاصير الظلم والفساد حتى يتغلب الخير على الشر والحق على الباطل ولا يزال هذا سنة الوجود مابقى الإنسان على ظهر البسيطة .

حديث عن الرسل

* تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

لما خاطب الله تعالى رسوله ومصطفاه خطابا أكد فيه إثبات الرسالة له فقال : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾[١] ، أكد بعد ذلك شيئاً عن هؤلاء المرسلين فقال : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ . نعم لقد اقتضت مشيئة البارى جلّ شأنه أن يفضل بعض المخلوقات على البعض الآخر : ففضل جبريل على جميع الملائكة،وفضل مكة على جميع البلاد،وفضل القرآن على جميع الكتب ، وفضل المسجد الحرام على جميع المساجد ، وفضل بعض الجبال على بعض كعرفات ، وفضل بعض الساعات على بعض كساعة الإجابة ، وفضل ليلة القدر على جميع الليالى ، وفضل يوم عرفات على جميع أيام السنة ، وفضل يوم الجمعة على أيام الأسبوع ، وفضل بنى آدم على كثير ممن خلق تفضيلا . قال رسول الله ﷺ فى شأن يوم عرفة : (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة ويقول : ما

(١) سورة يس آية ٣

أراد هؤلاء ؟)[١] ، وقال ﷺ : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئا إلا أعطاه إيّاه ما لم يسأل حراما ، وفيه تقوم الساعة)[٢] ، وفضل بعض النساء على بعض : كمريم ابنة عمران ، وآسية زوج فرعون ، وخديجة زوج محمد ، وفاطمة بنت محمد . وفضل بعض الرسل على بعض كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وفضل محمداً ﷺ على جميع المخلوقات . وإذا كان بعض الرسل أفضل من بعض إلا أن الإيمان بهم جميعا واجب . وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صدق الإسلام ، إذ أنه يأمر أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[٣] .

وقال عزّ من قائل : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[٤] .

وقال جل شأنه مشددا الوعيد على قوم كفروا بالله ورسله وفرقوا فى الإيمان بين بعض الأنبياء والبعض الآخر فقال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا۝أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾[٥] .

ثم وعد المؤمنين بالخير العميم والثواب الكريم فقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما ﴾[٦] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو الإسلام ، وتحت لواء واحد هو قول «لا إله إلا الله» . قال ﷺ : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى « لا إله إلا الله »)[٧] . وقد جاء الإسلام يؤكد تلك الحقيقة ، ألا وهى وجوب الإيمان بكل الأنبياء دون تفريق . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٨] . وقد بين الله تعالى بعض وجوه التفضيل فى قوله : ﴿ منهم من كلّم الله ﴾ والمراد به موسى . قال تعالى : ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾[٩] . وقال : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾[١٠] ، وقال : ﴿ يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[١١] .

---

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٧١١ ط دار الكتاب العربى .
(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٢٨٦ ط دار الكتاب العربى .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٣٦ .
(٥) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٦) سورة النساء آية : ١٥٢ .
(٧) رواه الجماعة
(٨) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .
(٩) سورة النساء آية : ١٦٤ .
(١٠) سورة الأعراف آية : ١٤٣ .
(١١) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .

قوله تعالى : ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ المقصود به محمد ﷺ الذى خاطبه مولاه بقوله : «وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىَّ كل طريق واستفتحوا علىّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد» ، إنه النبى الذى ذكى الله تعالى عقله فقال : ﴿ ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ﴾[1] ، وذكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[2] ، وذكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾[3] ، وذكى جليسه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[4] ، وذكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[5] ، وذكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[6] ، وذكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[7] .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

أنت الذى من نورك البدر اكتسى	والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك يا علم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى	أن تجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله يا علم الهدى	ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

ولقد أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمحمد وأن ينصروه وأن يوصوا أتباعهم بذلك . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاء كم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾[8] .

لقد رفع الله محمدا ﷺ درجات فمنحه الخلق الكريم . ولقدمدحه بما منحه فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[9] .

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل	يُغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزة	تعرو الندى وللقلوب بكاء

(١) سورة النجم آية : ٢ .
(٢) سورة النجم آية : ٣ .
(٣) سورة النجم آية : ٤ .
(٤) سورة النجم آية : ٥ .
(٥) سورة النجم آية : ١١ .
(٦) سورة النجم آية : ١٧ .
(٧) سورة القلم آية : ٤ .
(٨) سورة آل عمران آية : ٨١ .
(٩) سورة القلم آية : ٤ .

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة للحق لا ضغن ولا شحناء

وقد رفع الله درجته لما جعل معجزته القرآن وهى المعجزة الخالدة على مر العصور والأزمان : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾[١] .

وقد رفعه الله درجات عندما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس . قال ﷺ متحدثا بفضل الله عليه : (ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[٢] .

وروى عنه أنه قال : (فضلت على الأنبياء بست : أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأُحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بى النبيون)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ ، المقصود بالبينات المعجزات الدالة على صدق نبوته ، كإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وإحياء الموتى بإذن الله . والمقصود بروح القدس أى الروح المقدس الطاهر ، وهو الأمين جبريل . وأيدناه أى قويناه . وقد جاء ذكر صاحب الدرجات العلا سيدنا محمد ﷺ بين موسى وعيسى لأنه صاحب الأمة الوسط . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[٤] .

بعد ذلك قال تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر** ﴾ أى لو أراد الله عدم اقتتال الناس بعد أنبيائهم ما اقتتلوا ، وأى داع يدعو إلى الاقتتال بعد وضوح الحجة ومجىء البينات ؟ لكنهم اقتتلوا لما اختلفوا فصاروا بين مؤمن وكافر ، فوقع الصراع المرير بين الفريقين . ثم قال تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا** ﴾ أى لرفع الخلاف والاختلاف من بينهم ، وهو السبب الذى أدى للاقتتال . قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾[٥] .

قوله جلَّ شأنه : ﴿ **ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾ ، أى أنه سبحانه ﴿ يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾[٦] فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته : «عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد» .

---

(١) سورة الاسراء آية : ٩ .
(٢) صحيح البخارى .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢١٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٥) سورة هود الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .
(٦) سورة القصص آية : ٦٨ .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى

الحث على النفقة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

هذا خطاب كريم من رب كريم بصفة كريمة هى الإيمان : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ وقد جاءت آية الأمر بالإنفاق بعد آية الرسل لتفيد أن الانفاق مما جاءت به الرسل وأمرت به الأمم فإذا كان الإيمان يحيى القلوب فإن الانفاق يحييها أيضا بإزالة الشحناء والبغضاء منها . وقد جاء الحث على الانفاق ترغيبا مرة وترهيبا أخرى . جاء ترغيبا فى قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾[١] . وجاء ترهيبا فى هذه الآية . ذلك لأن النفوس مختلفة المنازع والمذاهب والمشارب فالعبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة . وعندما أمر الله بالإنفاق قرن الأمر بقوله ﴿ **مما رزقناكم** ﴾ أى أن المال ماله والأرزاق من عنده ، فما الغنى إلا موظف فى مال الفقير ، قال تعالى : ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[٢] . وقال النبى ﷺ : (صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب وصلة الرحم تزيد فى العمر)[٣]

وقال : (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء) . كما بين أن للانفاق وظائف اجتماعية فقال : (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء)[٤] . وليست الزكاة منة يمن بها الغنى على الفقير إنما هى حق معلوم كما أنها ذمة وفريضة . قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾[٥] . وقال فى الحديث القدسى الجليل : (الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى . فإذا بخل وكلائى على عيالى أخذتهم ولا أبالى)[٦] . وقد أخبر الصادق المعصوم أنه ما منع قوم الزكاة إلا منعوا القتر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . وقد رغب الله تعالى فى الإنفاق فقال فى الحديث الجليل : (أنفق أُنفق عليك)[٧] . وقال النبى ﷺ : (صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا)[٨] . وما أجمل ما قاله الله تعالى : ﴿ وأنفقوا خيرا لأنفسكم ﴾[٩] ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[١٠]. ﴿ إن تقرضوا

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٥ .
(٢) سورة الحديد آية : ٧ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٠٠ ط دار الفكر .
(٤) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٣ ص ٧٦٥ .
(٥) سورة المعارج الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٦) الجامع الصغير المرجع السابق .
(٧) الأحاديث القدسية ص ١٦٠ ص المجلس الأعلى .
(٨) الجامع الصغير المرجع السابق .
(٩) سورة التغابن آية : ١٦ .
(١٠) سورة الحشر آية : ٩ .

الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾(١) . وما أجلَّ قوله جلَّ شأنه : ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾(٢) .

وما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم ارزق منفقا خلفاويقول الآخر : وارزق ممسكا تلفا .

وقد حذر الله تعالى من إتيان يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، وهو كما قال جلّ شأنه : ﴿قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾(٣) .

وما أجمل ما حكاه القرآن الكريم عن إبراهيم يدعو ربه فيقول : ﴿ولا تُخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾(٤) ، فياله من يوم ما أطوله . ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله . أما اليوم فيقول فيه تعالى : ﴿واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾(٥) . وأما الهول فيقول فيه تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٦) . وأما الجبار فهو الذى يقول : ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾(٧) . وهو الذى يقول : ﴿ وأنذرهم يوم الأَزِفةِ إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾(٨) . فلا بيع فى هذا اليوم : أى لا فدية ، ولا خلة أى لا صداقة ولا شفاعة : أى لا شفيع يرفع ما نزل بالنفوس وحاق بها ، ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ لأنهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾(٩) . قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾(١٠) .

آية الكرسى

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ

(١) سورة التغابن آية : ١٧ .
(٢) سورة محمد آية : ٣٨ .
(٣) سورة إبراهيم آية : ٣١ .
(٤) سورة الشعراء آية : ٨٧ - ٨٩ .
(٥) سورة البقرة آية : ٤٨ .
(٦) سورة الحج آية : ١ ، ٢ .
(٧) سورة غافر آية : ١٦ ، ١٧ .
(٨) سورة غافر آية : ١٨ .
(٩) سورة الملك الآيات : ٦ - ٩ .
(١٠) سورة الزخرف آية : ٧٦ .

إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

يقول ابن كثير :

جاء فى فضل تلك الآية أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ : ـ روى الإمام أحمد بإسناده إلى أُبى بن كعب أن النبى ﷺ سأله : (أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم فرددها مرارا.ثم قال : آية الكرسى . قال : ليهنك العلم أبا المنذر والذى نفسى بيده إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش) .

- عن عبد الله بن أبى بن كعب أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر ، قال فكان أبى يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم قال : فسلمت عليه فرد السلام قال : فقلت ما أنت ؟ جنى أم إنسى ؟قال : جنى . قال : قلت ناولنى يدك قال : فناولنى يده فإذا يد كلب وشعر كلب . فقلت : هكذا خلق الجن ؟ قال لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى ، قلت فما حملك على ما صنعت ؟ لقد بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك قال:فقال له أبى فما الذى يجيرنا منكم ؟ قال هذه الآية «آية الكرسى» ثم غدا إلى النبى ﷺ فأخبره فقال النبى ﷺ : (صدق الخبيث) .

- عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته فقال : « أى فلان هل تزوجت ؟ » قال : لا وليس عندى ما أتزوج به قال : « أو ليس معك . قل هو الله أحد » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : أليس معك « قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى . قال: « ربع القرآن » قال : أليس معك « إذا زلزلت ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : إليس معك « إذا جاء نصر الله ! » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : إليس معك « آية الكرسى » « الله لا إله إلا هو » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » .

- وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد فجلست فقال : « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت : لا.قال : « قم فصل » قال : فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : قلت يا رسول الله أو للإنس شياطين ! قال : نعم . قال : قلت يا رسول الله ، الصلاة قال : خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال : قلت يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فرض مجزى وعند الله مزيد » قلت يا رسول الله فالصدقة ، قال : « أضعاف مضاعفة ، قلت يا رسول الله فأيها أفضل ، قال : جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ، قال « آدم » قلت يا رسول الله ونبى كان . قال : « نعم نبى مكلم » . قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟ . قال : « ثلثمائة وبضعة عشر جما غفيرا » وقال مرة « وخمسة عشر » قلت يا رسول الله أى ما أنزل عليك أعظم ، قال : آية الكرسى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

- وقد ذكر البخارى فى كتاب فضائل القرآن : عن أبى هريرة قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان

فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة قال : فخليت عنه فأصبحت . فقال النبى ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قال : قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال : «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال لا أعود . فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قلت يا رسول الله شكاحاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال:«أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات ، انك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت وما هى : قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «ما فعل أسيرك البارحة»،قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله . قال : «ما هى» . قال لى إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وقال لى لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شيء على الخير،فقال النبى ﷺ:«أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة» قلت لا قال : «ذاك شيطان» .

- وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة أى القرآن : آية الكرسى ».

- روى الإمام أحمد بإسناده عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين «الله لا إله إلا هو الحى القيوم) و«الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم »«إن فيهما اسم الله الأعظم» .

- عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» .

- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ «حم»المؤمن إلى «إليه المصير»وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح»[١] .

تفسير الآية :

أخبر الله جل جلاله عن ذاته بأنه لا إله إلا هو أى هو المتفرد بالسلطان والجلال والوحدانية وهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عداه ، سبحانه تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد بلا

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٥٠ - ٤٥٥ ط الشعب .

عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . سبحانه هو القائل فى الحديث القدسى الجليل : أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملك وملك الملوك . قلوب الملوك فى يدى[١] .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهبا وكل الكائنات تمجد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

يا أخا الإسلام : انظر إلى السماء وارتفاعها،والشمس وشعاعها،والأفلاك ومدارها،والبحار وأمواجها والأرض واتساعها . الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويعلن عن شكره ولا يغفل عن ذكره . ثم انظر إلى كل ظاهر وكامن ومتحرك وساكن . كل شىء قائم به . وكل شىء خاشع له . قوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف وعز كل ذليل وغنى كل فقير . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه . أخبر جل جلاله عن ذاته بأنه الواحد وهذا مركوز فى طباع الخلائق . ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[٢]، ثم أخبر سبحانه بأنه الحى ، والحياة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تصحح الاتصاف بصفات الكمال من علم وإرادة وقدرة وسمع وبصر وكلام . وإذا كان غير الله قد يوصف بأنه حى إلا أن حياته ليست لذاته إنما هى مكتسبة من الله جل شأنه . أما حياة الله فإنها واجبة لذاته لا يعتريها الفناء . قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾[٣] .

كما وصف سبحانه ذاته بالقيومية ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو القائم على تدبير ملكه ؛ فالأمر أمره والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾[٤] . فمن صفاته جل شأنه أنه القائم بذاته غير محتاج إلى غيره : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله ﴾[٥] . ومن صفاته جل شأنه لا يغفل ولا ينام . قال سبحانه: ﴿ **لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ المقصود بالسنة النعاس وهو أخف من النوم ومعنى لا تأخذه أى لا تغلبه . وهذا أسلوب فى الترقى أى أنه جلّت قدرته لا يغلبه النعاس ولا ما هو أشد منه وهو النوم ، ذلك لأن النعاس والنوم من باب الضعف البشرى والله هو القوى العزيز وهو ذو القوة المتين فمن الذى يدبر الأمر إذا نام . سبحانه علا فقهر وملك فقدر وبطن فخبر لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل . إذا كان ثلث الليل الأخير نادى : هل من تائب فأتوب عليه.هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر

(١) الأحاديث القدسية ط المجلس الأعلى .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة الفرقان آية : ٥٨ .
(٤) سورة الروم آية : ٢٥ .
(٥) سورة المؤمنون الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

فأغفر له . سبحانك ربي أستحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت . إن كانت ذنوبي لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

أنت الذى تهب الكثير وتجـ ـبر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

جاء في الصحيح عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[١] .

وعن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله تعالى:﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أن موسى عليه السلام سأل الملائكة : هل ينام الله عز وجل ؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤ رقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ، ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما قال : فجعل ينعس وهما فى يده فى كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما . قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله عزّ وجلّ يقول : فكذلك السماوات والأرض فى يده[٢] .

قوله تعالى:﴿ له ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾ تقديم الخبر يدل على الحصر والقصر أى أن ما فى السماوات وما فى الأرض ملك له سبحانه لا يشاركه أحد فيه ، ولله تعالى المثل الأعلى ، فقد تنزه عن كل الشركاء ولا يشرك فى حكمه أحدا وهو القائل : ﴿ يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾[٣] وقد فصل هذا الشأن فى قوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤ تى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[٤] .

يقول ابن كثير :

قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ هو كقوله جلّ شأنه:﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وكقوله جلّ شأنه:﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وكقوله:﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وكقوله جلّ شأنه:﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ .

جاء فى حديث الشفاعة «آتى تحت العرش فأخر ساجدا فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى . ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع ــ قال : فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة»[٥] .

(١) تفسير ابن كثيرج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ ط الشعب .
(٢) المرجع السابق
(٣) سورة الرحمن آية : ٢٩ .
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٥) تفسير ابن كثيرج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

قوله تعالى: ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء** ﴾ . هذا إخبار عن علمه تعالى والعلم صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها جميع الكائنات . والله تعالى قد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[١] .

قال النبى ﷺ : (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم . فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذا لا تستطيعون الخروج من علم الله . وكما لا تحملكم السماء والأرض على فعل الذنوب كذا لا يحملكم علم الله)[٢] .

ومعنى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم : الإحاطة والشمول . فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . قال تعالى : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه** ﴾ أى لا يعلمون ذاته أو صفاته إلا بما أعلمهم به سبحانه ، وهو معنى قوله جلَّ شأنه: ﴿ **ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء** ﴾ أى إلا بما أعلمهم عن طريق الوحى . قال سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه إحدا * إلا من ارتضى من رسول ﴾[٣] . فلا إحاطة من شىء من علم الله إلا بمشيئة الله . وهذا الكون لا تطرف فيه عين ولا تهب فيه نسمة هواء ولا يحدث فيه حدث كبير أو صغير إلا بإذن الله .

قوله تعالى: ﴿ **وسع كرسيه السماوات والأرض** ﴾ . قال ابن عباس : كرسيه أى علمه . وقال آخرون : الكرسى موضع القدمين . وعن ابن عباس قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ ﴿ **وسع كرسيه السماوات والأرض** ﴾ قال : «كرسيه موضع قدميه ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عزّ وجل » . قال ابن زيد : حدثنى أبى قال : قال رسول الله ﷺ : «ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس» . وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرانى فلاة من الأرض وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[٤] .

قوله تعالى: ﴿ **ولا يؤوده حفظهما** ﴾ أى لا يثقله ولا يتعبه حفظ السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما . ﴿الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾[٦] . قوله تعالى: ﴿ **وهو العلى العظيم** ﴾ أى كقوله تعالى ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[٧] فالحمد لله الذى وصف ذاته بما هو أهل له ، فهو رفيع الدرجات ذو العرش وهو الكبير الذى لا تدرك العقول مدى عظمته . فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩ .
(٢) ابن كثير المرجع السابق .
(٣) سورة الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ط الشعب .
(٥) سورة الأنعام آية : ١ .
(٦) سورة سبأ الآيتان : ١ ، ٢ .
(٧) سورة الرعد الآية : ٩ .

لا إكراه فى الدين

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥٧)

المفردات: ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ : أى لا إكراه فى دخول الدين . وبان الشىء واستبان : وضح وظهر ، ومنه المثل : تبين الصبح لذى عينين . والرشد : بالضم والتحريك والرشاد : الهدى وكل خير وضده الغى والجهل كالغى إلا أن الأول فى الاعتقاد والثانى فى الأفعال ومن ثم قيل زوال الجهل بالعلم وزوال الغى بالرشد . والطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الشىء ويجوز تذكيره وتأنيثه وإفراده وجمعه بحسب المعنى كما قال تعالى ﴿ **أولياؤهم الطاغوت** ﴾ وقال «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به» والعروة من الدلو والكوز ونحوهما : المقبض الذى يمسك به من يأخذها والوثقى : مؤنث الأوثق وهو الحبل الوثيق المحكم . . والانفصام : الانكسار أو الانقطاع من قولهم فصمه فانفصم أى كسره أو قطعه . والولى : الناصر والمعين ، والظلمات : هى الضلالات التى تعرض للانسان فى أطوار حياته كالكفر والشبهات التى تعرض دون الدين فتصد عن النظر فيه أو تحول دون فهمه ، والإذعان له كالبدع والأهواء التى تحمل على تأويله وصرفه عن وجهه والشهوات التى تشغل عنه .

يروى فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من الأنصار ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً . فقال للنبى ﷺ : ألا استكرههما : فإنهما قد أبيا إلا النصرانية . فأنزل الله الآية . وفى بعض الروايات أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا انظر ؟ فنزلت فخلاهما[١] .

لما كان الإسلام يخاطب الناس بالمنطق السديد والعقل الرشيد ، ما كان فى أدنى حاجة إلى إكراه أحد على الدخول فيه ولقد نطقت آية الكرسى بأصول العقائد من توحيد خالص وصفات خاصة بالله وحده ، فهو الحى القيوم الذى لا يغلبه نعاس ولا نوم ولا تعتريه غفلة ولا غيبة قال تعالى «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين» وقال تبارك اسمه: ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[٢] وقد جاء فى آية الكرسى أن الله وحده له ملك السموات والأرض كما أن علمه شمل الأزمان كلها وأحاط بالكون كله وأنه هو

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٩ ط الشعب .
(٢) سورة المؤمنون آية : ١٧ .

العلى العظيم فقد تبين من هذا أن الفطرة السليمة لا تعارض صفة من صفات الألوهية ولا تناقض أصلاً من أصول الإسلام ، قال تعالى: ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[١] وقال جل شأنه: ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢] إن الطريق لائح وإن الحق واضح وإن المنادى صائح ؛ وقد بدا الصبح لذى عينين ، وبرح الخفاء وتبين الرشد من الغى والحق من الباطل والهدى من الضلال فكيف يكون هناك إكراه على دخول الدين . . إن الإسلام عقائد وقواعد وتصديق ، وكل هذه مركوزة فى القلب وما فى القلب لا سلطان لأحد عليه إلا لله وحده قال تعالى : «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[٣] وقال جل شأنه «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٤] وقد ذكر الله تعالى بعد ذلك أن توحيد الله يقتضى الكفر بالطواغيت أيا كانت صورها فكل ما عبد من دون الله يخالف التوحيد وكل من تجاوز الحد فى الطغيان يجب ألا يكون له مكان فى قلوب الموحدين . وبعد تخلية القلب عما سوى الله يكون الإيمان الخالص ويكون الاستمساك بالعروة الوثقى والصلة القوية قال جل شأنه : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ . وهذا مؤشر قوى يدل دلالة صادقة على بشاشة الإيمان إذا خالطت شغاف القلوب لا يمكن أن تنفصم أو تنفصل عن قلب المؤمن إنها تكاد تجعل المستحيل ممكنا ، ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ سميع لأقوال العباد عليم بأحوالهم . وبعد الإيمان بالله والكفر بالطواغيت يطمئن الله المؤمنين بأنه مولاهم وناصرهم ومعينهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى ، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء وإنما جمع الظلمات وأفرد النور لأنها كثيرة متنوعة فهناك ظلمة الشبهات وظلمة الشهوات وظلمة الشرك وظلمة الهوى وظلمة النفاق إلى غير ذلك ، أما طريق النور فإنه واحد لأنه الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » أما الكافرون الذين عبدوا الطاغوت وأطاعوا أمره فإنه وليهم والطواغيت أنصارهم يضلونهم بغير علم ويخرجونهم من نور الحق إلى ظلمات الكفر ، هؤلاء محكوم عليهم بالخلود فى النار . نسأل الله العافية .

الذى حاج ابراهيم فى ربه

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

المفردات : الاستفهام للتعجب والإنكار . وحاج : جادل وقابل الحجة بالحجة . فبهت : أى صار مبهوتاً

(١) سورة البقرة آية : ١٣٨ .
(٢) سورة الروم آية : ٣٠ .
(٣) سورة يونس آية : ٩٩ .
(٤) سورة الكهف آية : ٢٩ .

دهشاً وأخذه الحصر من سطوع نور الحجة فلم يجد جوابا . الظالمين : أى المعرضين عن قبول الهداية بالنظرفى الدلائل القاطعة التى توصل إلى معرفة الحق .

هذا مثل واقعى لطاغوت من طواغيت الأرض . إنه النمروذ بن كنعان على عهد ابراهيم الخليل ، جادل فى شأن رب العالمين وكان جداله سفسطة وتضليلا ومكابرة ، والذى دفعه إلى ذلك طغيانه وتجبره ؛ فقد نسى نفسه وتلك أقصى مراحل الضلال أن ينسى الانسان نفسه فينسى ربه قال تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[٢] قال الحسن رضى الله عنه : عجبت لابن آدم ، يتكبر على الله وهو حفنة من التراب تداس بالأقدام . . كيف يتكبر على الله وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة تنتنه عرقة وتؤذيه بقة وتقتله شرقة .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك ، فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيها فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا ... اقصر فإنك مأكول ومشروب

رضى الله عن أبى بكر الصديق ؛ أرسل إلى كسرى عظيم الفرس إنذارا شديد اللهجة قال له ياكسرى : كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة من صلب أبيك ومرة من رحم أمك . لك العظمة والكبرياء يارافع السماء بلا عمد .

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
فياسائلى عن أناس مضوا ... آمالك فيما مضى معتبر

ماذا قال النمروذ الذى أطغاه ملكه . قال لإبراهيم أنا أحيى وأميت . . قالها تعقيبا على حقيقة نطق بها إبراهيم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ قال النمروذ : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ كيف كان ذلك جاء برجلين وأصدر حكمه عليهما بالإعدام فخفف الحكم عن واحد فادعى بذلك أنه أحياه ونفذ الحكم فى الآخر فادعى أنه أماته ، وهكذا يفعل الضلال بأهله . . تهريج وفوضى ضاربة أطنابها ، لقد نسى أو تناسى أن الإحياء والإماتة شأن من شئون الله ، فالإحياء يكون بنفخ الروح ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[٣] . وكما أن الحياة مخلوقة فإن الموت أيضاً مخلوق قال سبحانه : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾[٤] ولما كان النمروذ ﴿ يجادل فى الله بغير علم ولا

(١) سورة التوبة آية : ٦٧ .
(٢) سورة الحشر آية : ١٩ .
(٣) سورة الاسراء آية : ٨٥ .
(٤) سورة الملك الآيتان : ١ ، ٢ .

هدى ولا كتاب منير * ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ﴾[1] أفحمه الخليل بقوله : ﴿ **فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت** ﴾ ودهش وأندحر ، بعدما ألقم الحجارة فى حلقه ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ لأنهم اختاروا الظلم منهجا والجدل سبيلا والباطل طريقا فاستحقوا أن يحرموا نعمة الهداية .

الذى مر على قرية

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

هذه الآية ساقها الله تعالى دليلا على أنه هو الذى يحيى ويميت إحياء حقيقيا ، لا كما صنع طاغية الأرض النمروذ فهذا عزير يمر بقرية ، المشهور أنها بيت المقدس وقد خربها (بختنصر) فأصبحت ساقطة العروش والجدران على الأرض فسأل نفسه متعجبا أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها . . أى كيف يحيى الله أهل هذه القرية وقد أصبحوا بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى أجسادا هامدة ورفاتا سحيقا وصعيدا جرزا . فجاءت الإجابة من الله عملية مطبقة عليه ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه وساق الملك إليه هذا السؤال كم لبثت ؟ فأجاب العزير لبثت يوما أو بعض يوم ؛ ذلك لأنه مات بعد طلوع الشمس وبعثه الله بعد مائة عام عند غروبها فقال له الملك بل لبثت مائة عام وهكذا يطوى الموت الزمن تأتى أقوام وتموت أقوام ويدرك الناس الموت والإعدام ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

ذكر المفسرون أن الله تعالى أحيا عينيه أولا فأبصرت بإذن الله ليرى الحياة وهى تسرى فى جميع أوصاله وكان معه طعام وشراب فلم يتغير الطعام ولا الشراب كان معه كما ذكر المفسرون عصير وتين وعنب فلم يتغير العصير ولم يفسد التين ولم يجف العنب وكان معه حمار يركبه فأمره الله أن ينظر إليه والحياة تسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر كما أمره أن ينظر إلى العظام كيف ينشزها الله أى يرفعها من الأرض ويعيدها إلى أماكنها بترتيب ونظام ثم يكسوها لحما أصله الخلايا التى قامت بتكوين الأنسجة التى قامت بتكوين الأعضاء التى

(١) سورة الحج الآيتان : ٨ ، ٩ .

قامت بتكوين الأجهزة وسبحان القائل ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعاً والمهيمن باق

فلما تبين للعزير كيف أحيا الله أهل هذه القرية بعد موتها أقر بلسانه وقلبه قائلا أعلم أن الله على كل شىء قدير . نعم وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا .

إبراهيم وإحياء الموتى

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

المفردات: ﴿فصرهن﴾ : أى ضمهن ، ﴿سعيا﴾ : أى مسرعات طيرانا ومشيا ، وعزيز : أى غالب على أمره ، حكيم : أى لأنه جعل أمر الإعادة وفق حكمة التكوين .

قال ابن كثير :

ذكروا لسؤال ابراهيم عليه السلام : أسبابا منها أنه لما قال النمروذ ﴿ **ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال : أو لم تؤمن . قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) . فلم يكن سؤال ابراهيم شكا ومعاذ الله أن يكون كذلك ، فإبراهيم هو الذى قال الله تعالى فى شأنه ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾[1] روى الامام البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (نحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)[2] يريد الرسول ﷺ أن يقول ما شك إبراهيم عندما سأل الله هذا السؤال لأننا أحق بالشك منه فقد أمرنا باتباعه وحيث انتفى الشك عن التابع فإنه بالأولى ينتفى عن المتبوع قال شراح الحديث : لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا فى أنه هل يجيبهما إلى ما سألا . وقال أبو سليمان الخطابى ليس فى قوله نحن أحق بالشك من

(١) سورة الأنعام آية : ٧٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ط الشعب .

ابراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفى الشك عنهما ، يقول إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع ، وكذلك قوله « لو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى » . والمراد بالداعى ما جاء فى قوله تعالى ﴿ وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾[1] كأنه ﷺ يريد أن يقول اسألوا الله العافية ، وسؤال إبراهيم لا يفيد شكا ولكنه من قبل زيادة علم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال ، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم : شك ابراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه .

قوله تعالى ﴿ **قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا** ﴾ فنفذ إبراهيم أمر ربه ، فأخذ أربعة من الطير لم يعين الكتاب العزيز أنواعها ، إذ لا طائل تحت بيان أنواعها حتى لا ينشغل الذهن بها عن القضية الحقيقية ، ومع إحياء الموتى وذبح إبراهيم الطير ونتف ريشه وخلط أجزائه بعضها ببعض ، ووضع كل جزء منها على جبل ونادى عليها فأحياها الله بعدما اختلف بعض أجزائها فى بعض ، وجاءت تسعى ترفرف بأجنحتها ، وسبحان القائل : ﴿ **ثم ادعهن يأتينك سعيا** ﴾ وهذا أيضا إحياء حقيقى بعدما اختلطت العظام باللحم وهذا الإحياء رد مفحم لعدو الله نمروذ الذى قال أنا أحيى وأميت .

قوله تعالى ﴿ **واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ المراد من الأمر بالعلم الدوام عليه كما فى قوله جل شأنه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾[2] والعزيز هو الذى لا يغلب والحكيم هو الذى تنزه فعله عن العبث .

مثل للانفاق فى سبيل الله

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(١) سورة يوسف آية : ٥٠ .
(٢) سورة النساء آية : ١٣٦ .

المفردات: ﴿ سبيل الله ﴾ ما يوصل إلى مرضاته تعالى . الحبة : واحدة الحب وهو ما يزرع ليقتات به ، المن : أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ويظهر به تفضله عليه ، والأذى : أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه كأن يقول له : انى قد اعطيتك فما شكرت قول معروف : أى كلام حسن ورد جميل على السائل كأن يقول له : رزقك الله أو عد إلى مرة أخرى أو نحو ذلك . ومغفرة : أى ستر لما وقع منه من الإلحاف فى السؤال وغيره مما يثقل على النفوس احتماله : وخير : أى أنفع وأكثر فائدة . رئاء الناس أى مراءاة لهم لأجل أن يروه فيحمدوه ولا يقصد ابتغاء رضوان الله بتحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين وترقية شأن الأمر بالقيام بما يصلح شئونها فمثله : أى قصته . وصفوان : أى حجر أملس . والوابل : المطر الشديد والصلد : الأملس الذى ليس عليه شىء من الغبار ويقال فلان لا يقدر على درهم : أى لا يجده ولا يملكه .

أخرج ابن ماجه عن على وأبى الدرداء ، كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ قال : (من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم)[١] وعن معاذ بن جبل أن الغزاة المنفقين قد خبأ الله لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عن علم العباد .

بعدما بين الله تبارك وتعالى أن البعث حق وبين حقيقتين على ذلك ، أولاهما الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، والحقيقة الثانية إحياء الطير عندما سأل إبراهيم ربه ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ وكان فى الموقفين إحياء للأجساد ، جاءت آية الإنفاق بعد ذلك لتكون مثلاً على إحياء النفوس التى مسها الضر وعضها الفقر بنابه ، فجاءت الآية ترغيباً للنفوس لتنفق مما رزقها الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾[٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ وجاءت آية الترغيب فى الإنفاق فى صورة مثل رائع وتصدير بديع إنها كحبة أنبتت سبع سنابل لأنها زرعت بأرض خصبة جيدة وهى حبة واحدة لكن ساقها أراد ربك أن يحمل سبع سنابل ، وكل سنباة منها فيها مائة حبة ولا يقتصر الأمر على ذلك ، أى على سبع مائة بل قال تعالى : ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾[٣] لأنه واسع الرحمة عليم بنيات المنفقين. قال داود يارب كيف يستطيع العبد أن يملأ كفة الميزان حسنات ؟ قال له: يا داود . إذا تصدق بنصف تمرة لا يقصد بذلك إلا وجهى . وفى هذه الآية حقيقة علمية ، فقد عنى بتطبيق هذا المثل علميا بعض أعضاء الجمعية الزراعية بمصر فى مزارع القمح التى تملكها فى التفتيش النموذجى وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبلة واحدة بل أكثر وقد وصلت أحيانا إلى أربعين وأحيانا إلى ست وخمسين وأحيانا إلى سبعين كما دلتهم أيضاً على أن السنبلة الواحدة تنبت أحيانا ستين حبة أو أكثر وقد عثر فى عام ١٩٤٢ أحد مفتشى الجمعية على سنبلة أنبتت سبعاً

(١) تفسير ابن كثيرج ١ ص ٤٦٩ ط الشعب .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٧ .

ومائة حبة ،وعرض نتيجة بحثه على الأخصائيين من رجال الجمعية وغيرهم فى حفل جامع ورأواتلك السنبلة وعدوها عدا فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدَّ ورأى وشكروه على جهوده الموفقة .

وبعد ما حث الله تعالى على الصدقة ورغب فيها دعا المتصدق إلى الالتزام بآداب الصدقة فقال **﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾** ذلك لأن للصدقة آداباً وتخلقا يجب على المتصدق أن يلزمها ، من هذه الآداب أن يكون المقصود بالصدقة وجه الله وحده ومنها ألا يمن على الفقير كأن يقول له لقد أحسنت إليك ولى الفضل عليك ويذيع على الناس إحسانه وهو لا يدرى أن ذلك يبطل ثواب صدقته مع أن الله بين هذا فى كثير من آيات الكتاب كذلك من آدابها ألا يؤذى الفقير بأن يقول له لقد أحسنت إليك ولم تشكرنى ولم تعترف بالجميل ، مع أن رسول الله ﷺ يقول : « **أفضل الصدقة الصدقة على ذا الرحم الكاشح** »[1] أى الذى يضمر السوء والبغضاء لأنك بالصدقة عليه تكون قد أطفأت نار حقده ، وتكون قد جاهدت نفسك وخالفت شيطانك فأصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله .

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه	فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به	فليس يحصده إلا الذى زرعا

هؤلاء الذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيت أنفسهم ،ولم يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى لهم الأجر العظيم عند الله ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا يحزنون على ما مضى فإن لم يكن هناك ما تتصدق به ، فقول معروف وكلمة طيبة ومغفرة وستر على حال المسكين ، خير من صدقة مقترنة بالأذى ، ذلك لأن الإسلام يحترم الإنسانية فى الإنسان ولا يرضى بتصفير الوجوه ، وقد صدق من قال : « نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء وجهى » . وليعلم هؤلاء أن الله غنى حليم ، غنى عن عباده ولكنه حليم بهم ، يدعوهم إلى ما يصلح أحوالهم « لن ينال الله لحومها ولا دماؤ ها ولكن يناله التقوى منكم » .

ثم خاطب الله أهل الإيمان أن يلتزموا التزاماً شديداً بآداب الصدقة وألا يبطلوها بالمن والأذى ،وإن مثل من تصدق ثم أتبع الصدقة بالمن والأذى كمثل حجر عليه تراب فهبطت عليه السماء من مائها فغسل الماء الغزير ما على الحجر من تراب فتركه صلداً أملس ناعماً ، كذلك المن والأذى يغسل ويمحو ثواب الصدقة فتنقلب لا ثواب عليها ، فهل يقدر أحد على شىء مما كسب ، لأن المالك الحقيقى هو الله فما دمت عاجزاً أيها

(١) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير للسيوطى ج ١ ص ١٦٠ ط دار الفكر .

الإنسان لا تقدر على شيء من كسبك لأن الرزق بيد الله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[١] ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وأشكروا له إليه ترجعون ﴾[٢] والله لا يهدى القوم الكافرين لأنهم اختاروا الكفر طريقاً ، لذلك لا يعملون لله شيئاً إذا أنفقوا بقصد الرياء ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إذ لو آمنوا بالله وأنفقوا ابتغاء مرضاته ولو آمنوا باليوم الآخر لعملوا بقوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾[٣] هؤلاء مهما عملوا فسيحبط الله أعمالهم قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[٤] .

الإنفاق ابتغاء مرضاة الله

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

المفردات : ﴿ **ابتغاء مرضاة الله** ﴾ أى طلباً لرضوانه ﴿ **وتثبيتا من أنفسهم** ﴾ أى لتمكين أنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها عند بذلها بحيث لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص و ﴿ **الجنة** ﴾ البستان . و ﴿ **الربوة** ﴾ المكان المرتفع من الأرض ، وأشجار الربى أحسن منظراً وأزكى ثمراً للطافة هوائها وفعل الشمس فيها .و ﴿ **آتت أكلها** ﴾ أى أعطت صاحبها أكلها . والأكل كل ما يؤكل والمراد هنا الثمر ، وضعف الشىء : مثله و ﴿ **الطل** ﴾ المطر الخفيف . والإعصار : ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها إلى السماء حاملة الغبار فتكون كهيئة العمود ، والنار : أى السموم الشديد .

هذا مثل عظيم للذين ينفقون أموالهم لا يقصدون من وراء ذلك رياء ولا سمعة إنما يهدفون إلى أشرف غاية . ويقصدون بذلك أسمى هدف ، فهم لا يتبعون صدقاتهم بالمن والأذى ، إنما يريدون من وراء ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فذلك أقصى أمانيهم كما يقصدون تثبيت أنفسهم وتمكينها من الإيمان بطرق السخاء فبذل المال فيه جهاد للنفس ، لأن حب المال رأس كل خطيئة ، إذا تمكن من القلوب ، وهذا هو الفرق بين أبى بكر الصديق رضى الله عنه وبين ثعلبة بن حاطب . فالمال لم يستطع أن يتسرب إلى قلب الصديق ولم يقدر أن يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعة ، فكأنه فى يديه ولم ينفذ إلى قلبه ، لذلك بذله بسهولة ويسر . وقد جاء بماله

(١) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٢) سورة العنكبوت آية : ١٧ .
(٣) سورة النحل آية : ٩٦ .
(٤) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

كله يوم تجهيز جيش العسرة . جاء به إلى رسول الله ﷺ بنفس راضية مطمئنة . ولقد سأله الهادى البشير ﷺ : ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر ؟ . فرد على الفور تركت لهم الله ورسوله . أما ثعلبة فقد أغناه الله بعد فقر وبسط عليه الرزق بعد ضيق وعاهد الله إن آتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الشاكرين . فماذا كانت العاقبة ؟ لقد طلب منه أن يؤدى حق الله فى ماله فما كان جوابه إلا أن قال : لا أراها إلا أخت الجزية يقصد بذلك الزكاة . قال تعالى : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علاّم الغيوب ﴾[1] . لقد تسربت الدنيا وحب المال إلى قلب ثعلبة وتمكن ذلك أيما تمكن ، فلم يكن من الميسور انتزاعه بعد ما أشرب قلبه بحبه وهكذا ضرب الله المثلين وصوَّر لكل موقف ما يليق به : فالذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم مثلهم كجنة باسقة الظلال مغدقة الثمار بأرض عالية خصبة جيّدة . أصابها مطر غزير فأعطت ثمارها ضعفين أى مثلين فقد بارك الله فيها وفى ثمارها فإن لم يصبها المطر الغزير أصابها مطر خفيف وهو الطل فلم تحرم الناس عطاءها وثمارها : كذلك أهل الجود والكرم يعطون دائماً سواء أكان ما عندهم كثيراً أم قليلاً . فهم على خير وبركة . أُشربت قلوبهم بحب الكرم والعطاء . بل إنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ترى أحدهم فى حبه للعطاء كما قال القائل :

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت نائله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

إنهم تخرجوا فى مدرسة عميدها أكرم الخلق الذى وصفه خالقه بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فقد كان أجود من الريح المرسلة .

ماذا يقول المادحون وما عسى ... أن تجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله يا علم الهدى ... ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

فقد كنت أكرم الخلق على الإطلاق :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها ... على البر صار البر أندى من البحر

قوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ : أى بصير بحال المنفقين . عليم بأعمالهم . إن كانوا ينفقون جريا وراء السمعة وحبا فى الرياء أو كانوا ينفقون ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم . فما أجمل ابتغاء مرضاة الله فى الأعمال وليعلم المنفقون أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق وليكونوا واثقين بأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب . فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل)[2] .

---

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ صـ ٧ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ صـ ٧ ط وزارة الأوقاف .

والمقصود بعدل : مقدار ــ طيب : حلال . والمراد باليمين كما قال القاضى عياض : لما كان الشىء الذى يرتضى ويعز يتلقى باليمين ويؤخذ بها استعمل فى مثل هذا واستعير للقبول والرضا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عزَّ وجلَّ)[1] .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له . وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا)[2] .

وهكذا يبين ﷺ أن الإنفاق لله يجلب سعة الرزق ويقضى الحاجات ويكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول . ومعنى تجبروا : تجب دعواتكم وتغتنوا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول العبد مالى مالى . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى،أو أعطى فاقتنى،وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[3] .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة ، فقال النبى ﷺ : (ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها)[4] .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسلطة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

قوله تعالى : ﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت** ﴾ هذا تصوير قرآنى فى أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الرفعة لحال قوم اتبعوا الأعمال بالرياء والسمعة . كان لأحدهم جنة أى بستان عظيم اشتمل على أعظم الأشجار المثمرة من نخيل وأعناب ومياه الأنهار تجرى تحت الأشجار . وهذا البستان أعطى صاحبه من كل الثمرات فهذا هو الخير بعينه والنعيم والرفاهية . ثم هاجمه ، أى صاحب البستان ، الكبر وهدته السنون فهزمت فى بدنه العافية وذريته ضعفاء لا يقدرون على شىء وإذا بالجنة التى كان فيها النخيل الباسقات والأعناب المثمرة تصيبها ريح عاصفة وإعصار فيه نار ، فتذرها قاعا صفصفا ورمادا تذروه الرياح بعدما احترقت الأشجار . هذه حال الذين عملوا للرياء والسمعة فأبطلوا أعمالهم كما قال سبحانه:

---
(١) المصدر السابق ص ٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ص ٧ .
(٤) المصدر السابق .

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾(١)

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

وهكذا وبضرب الأمثال يبين الله تعالى لعباده الآيات والأحكام لعلهم يتفكرون فى الدنيا والآخرة حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها والله يقص الحق وهو خير الفاصلين .

الإنفاق من الكسب الطيب

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

المفردات : **الطيب** : هو الجيد المستطاب ، وضده الخبيث المستكره ، **ولا تيمموا** أى لا تقصدوا ، **وتغمضوا** : أى تتساهلوا وتتسامحوا من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره ، ويقال للبائع أغمِضْ أى لا تستقص كأنك لا تُبصر ، **وحميد**:أى مستحق للحمد على نعمه العظام .

إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ومن ثم فقد أمر عباده أن ينفقوا من جيد أموالهم التى اكتسبوها والتى أخرجها الله تعالى لهم من الأرض ، من الزروع والثمار والركاز والمعادن المختزنة فى باطن الأرض فكل هذه من رزق الله وفضله على عباده . وهو سبحانه المنعم . وشكر المنعم واجب وإخراج الزكاة سمة من سمات الشكر . وكما أمر تعالى بالإنفاق من الطيب الجيد فقد نهى عن الانفاق من الخبيث الردىء فقال : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ أى لا تقصدوا وتعمدوا إلى ردىء الأموال فتخرجوها صدقة ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم ﴾(٢) . ثم بين سبحانه أمراً يتعلق بنفس المتصدق فقال : ﴿ **ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه** ﴾ أى لن تقبلوا أخذ الخبيث الردىء إلا إذا تساهلتم فى أخذه اضطرارا لحاجتكم إليه . واعلموا أن الله غنى عن أموالكم وصدقاتكم إنما يدعوكم إلى الصدقة ليعود عليكم خيرها وثوابها ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ (٣) . ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾(٤) . والله تعالى حميد كثير المحامد مستحق لشكر محامده وذلك بأعمالكم الطيبة ومنها الإنفاق من طيب الكسب .

عن أنس رضى الله عنه قال : (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال

(١) سورة الفرقان آية : ٢٣
(٢) سورة آل عمران آية : ٩٢
(٣) سورة الحج آية : ٣٧
(٤) سورة الذاريات الآيات من ٥٦ : ٥٨

أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ . قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ، وإن أحب أموالى إلىَّ بَيْرُحَاء ، وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال : فقال رسول الله ﷺ : بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح)[1] .

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : ما تقول فى الصلاة ؟ قال : تمام العمل . قلت يارسول الله : تركت أفضل عمل فى نفسى أوخَيْرَهُ ؟ قال : ما هو ، قلت : الصوم ؟ قال خير وليس هناك . قلت يارسول الله : وأى الصدقة وذكر كلمة . قلت : فإن لم أقدر ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بشق تمرة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر . فإنها صدقة تصَّدَّق بها على نفسك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال :(تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئا)[2] .

وعد الله حق

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

المفردات : ﴿ **يعدكم** ﴾ أى يخوفكم . و﴿ **الفقر** ﴾ سوء الحال وضيق ذات اليد . و﴿**يأمركم** ﴾ أى يغريكم . والمراد بالفحشاء هنا البخل . و﴿**المغفرة** ﴾ الصفح عن الذنب . و﴿ **الفضل** ﴾ الرزق والخلف . و﴿ **الحكمة** ﴾ العلم النافع الذى يكون له الأثر فى النفس ، فيوجه الإرادة إلى العمل بما تهوى مما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

بعدما أمر سبحانه وتعالى بالإنفاق من طيبات الكسب حذر سبحانه من وعود الشيطان ذلك لأن الشيطان يعد ابن آدم الفقر إذا أنفق وضيق ذات اليد ويأمره بالفحشاء والمقصود بها هنا البخل . أما الله سبحانه وتعالى فوعده المغفرة والصفح الجميل والفضل العميم وسعة الرزق والله واسع الرحمة عليم بأحوال عباده . قال ﷺ : (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمةالشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان)[3] .

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٥ ط الشعب .

قوله تعالى:﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾.الحكمة : حكم صواب وعلم غزير وعمل موفق ، وقد منَّ الله بها على عباده الذين اصطفى . . جاء فى الدعاء الذى دعاه الخليل إبراهيم وابنه اسماعيل ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾(١) قال تعالى : ﴿ لقدمنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(٢) . فكانت هذه الآية استجابة لدعوة الخليل وابنه . ولقدمنَّ الله بالحكمة على داود فقال : ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾(٣) وقال فى حق لقمان : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ﴾(٤) وقال فى حق يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ وقال فى حق موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾ . وقال فى حق يحيى : ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ ، ومن دعاء الخليل إبراهيم : ﴿ رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ﴾(٥) . وقد ورد فى معنى الحكمة أقوال نذكرها فيما يلى عن ابن كثير عن ابن عباس : المقصود بالحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

وعن مجاهد : الحكمة الإصابة فى القول . وفى قول آخر لمجاهد لمعنى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن .

وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة . وفى رواية أخرى : عنه أيضا : الحكمة : الكتاب والفهم . وقال أبو مالك : الحكمة السنة . وقال زيد بن مسلم : الحكمة العقل . . قال مالك : إنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله وأمر يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله . . ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا فى أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفاً فى أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا،فالحكمة الفقه فى دين الله . . وقال السدى : الحكمة النبوة .

والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هى أعم منها ، وأعلاها النبوة والرسالة أخص ولكن لاتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء فى بعض الأحاديث : (من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه)(٦) .

قال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها »(٧) .

قوله تعالى:﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ أى لا يعتبر ويتدبر ويتذكر ما تهدف إليه الحكمة وما فيها من خير كثير فى الدارين إلا أصحاب العقول والنهى . نعم إن فى الحكمة خيراً كثيراً فليست السعادة فى

(١) سورة البقرة آية : ١٢٩
(٢) سورة آل عمران آية : ١٦٤
(٣) سورة ص آية : ٢٠
(٤) سورة لقمان اية : ١٢
(٥) سورة الشعراء آية : ٨٣
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ ط الشعب
(٧) جامع الأحاديث للسيوطى جـ ٧ ص ٣٤٨ .

الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، ولكن ترى السعادة فى إشراق العقل وانتصار الذهن وتزكية النفس . وعلى عرش السعادة يتربع القول الكريم : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾[1] .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾

النذر فى اللغة : العزم على التزام شىء خاص فعلاً أو تركاً . وفى الشرع التزام طاعة تقربا إلى الله تعالى ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه .

الإنفاق فى سبيل الله عبادة إذا ابتغى بها وجه الله . يدرك ذلك أصحاب الألباب كما أن النذر عبادة وهو إلزام الإنسان نفسه بفعل طاعة كأن يقول : إن شفى الله مريضى فعلىّ إطعام كذا من المساكين أو فعلىّ صيام كذا من الأيام . ولا يجوز النذر إلا لله تعالى ، لأنه عبادة ، والمعبود هو الله وحده ويجب الوفاء به.قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ﴾[2] . ولا يكون النذر إلا بطاعة . فمن نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه . ولا يكون إلا فى حدود ما يستطيع الإنسان . قال ﷺ : « ليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك »[3] . فالنفقة والنذر من العبادات . وقد علق الله تعالى هذه العبادة بعلمه فقال : ﴿ فإن الله يعلمه ﴾ أى يعلم المراد إن كان إخلاصاً أو رياء .

﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم فأحبطوا بالرياء أعمالهم وضيعوا بعدم الإخلاص لله ثوابهم ، ليس لهم من الله ولىّ ولا نصير . قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ أى إن أديتم الصدقات علانية فنعم الشىء هى وهذا أسلوب مدح . ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ . أى أن إخفاءها والإسرار بها خير وأفضل فالله جلّ شأنه يحب الإخلاص فى كل شىء أمر به عباده . والسرية أدعى إلى الإخلاص . وفعل الطاعات ، ومنها الصدقات مكفرة للسيئات ، مقربة إلى الرب ، منهاة عن الإثم ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ عليم بدقائق الأمور وحقائقها ، عليم بالنيات وما تخفى الصدور . وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية . يقول الإمام ابن كثير : قال رسول الله ﷺ : (الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة) . وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول

---

(١) سورة مريم آية : ٩٦

(٢) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٧

(٣) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٨ ص ٢٠٢ ط عيسى البابى الحلبى .

الله ﷺ : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل فى خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد . قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار . قال نعم الماء . قالت يارب فهل من خلقك شىء أشد من الماء . قال نعم الريح قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح . قال : نعم ، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله) .

عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله أى الصدقة أفضل . قال:(سر إلى فقير أو جهد من مقل) وفى الحديث المروى : (صدقة السر تطفىء غضب الرب عزوجل) .

وقال ابن أبى حاتم عن عامر الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ قال أنزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما أماعمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ (ما خلفت وراءك لأهلك ياعمر) قال : خلفت لهم نصف مالى . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه عن نفسه حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له : (ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر)فقال : عدة الله ورسوله . فبكى عمر رضى الله عنه وقال بأبى أنت وأمى يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا . روى ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً[1] .

الله يهدى من يشاء

* لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ط الشعب .

تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

المفردات : **الهدى ضربان** : هدى التوفيق إلى طريق الخير والسعادة وهو على الله تعالى ، وهدى الدلالة والإرشاد إلى الخير وهو على النبى ﷺ . **ابتغاء وجه الله** : طلب مرضاته . **أحصروا** : منعوا وحبسوا فى طاعته لغزو أو تعلم علم . **ضربا فى الأرض** : أى سيروا فيها للكسب والتجارة . **التعفف** : إظهار العفة وهى ترك الطلب ومنع النفس مما تريد . **السيما** : العلامة التى يعرف بها الشىء **إلحافا** : أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه .

بعد أن أرشد فى الآية السابقة إلى إيتاء الصدقات للفقراء عامة مسلمين وغيرهم ، بين هنا أنه لا ينبغى التحرج من إعطاء الفقير غير المسلم الصدقة لكفره ، لأن الصدقة لسد خلته ، ولا دخل لها بإيمانه ، إذ من شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ، وأن يسبق سائر الناس بالفضل والجود . أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية وأخرج ابن جرير وغيره أن ناسا من الأنصار لهم صهر وقرابة من المشركين ، كانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يُسْلِمو فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير قال : قال رسول الله ﷺ : إنه كان يأمر بألا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزل الله تعالى:﴿ ليس عليك هداهم ﴾الآية[1] .

﴿ **ليس عليك هداهم** ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين ، إن أنت إلا بشير ونذير ، وما عليك إلا الإرشاد والحث على الفضائل والنهى عن الرذائل كالمن والأذى وإنفاق الخبيث . ﴿ **ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ أى أن أمر الناس فى الاهتداء مفوض إلى ربهم بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم ، فهو الذى يوفقهم إلى النظر الصحيح الذى يكون من ثمرته العمل الموصل إلى سعادتهم .

﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** ﴾ أى وما تنفقوا من خير فنفعه عائد إليكم فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فلأنه يكف شر الفقراء ويدفع عنكم أذاهم ، فإن الفقراء إذا ضاقت بهم الحال وحزبهم الأمر تألبوا على الأغنياء وسلبوهم ونهبوا أموالهم وآذوهم على قدر ما يستطيعون ، ثم يسرى شرهم إلى غيرهم ، فتختل نظم المجتمع ، ويفقد الأمن فى الأمة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٨ ط الشعب.

وأما فى الآخرة فلأن ثوابه لكم ، ونفعه الدينى راجع إليكم لا للفقراء ، فلا تمنعوا الإنفاق على فقراء المشركين .

﴿ **وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله** ﴾ أى أنكم لا تنفقون لأجل جاه ولا مكانة عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين فقير وفقير ، إذا كان مستحقاً يتقرب بإزالة ضرورته إلى الرزاق الكريم الذى لم يحرم أحدا من رزقه لأجل عقيدته ، وهذا كقوله : ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾ .

﴿ **وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ أى يوف إليكم فى الآخرة لا تنقصون منه شيئا ، فأنتم على استفادتكم من الانفاق فى رقى أنفسكم ، وتثبيتها فى مقامات الإيمان والاحسان ، وإرادة وجه الله وابتغاء مرضاته ـ لا يضيع عليكم ما تنفقون ، بل توفونه ولا تظلمون منه شيئا . وفى هذا إرشاد من الله لعباده أن يكملوا أنفسهم ، ويبتغوا أن يراهم الله كملة ، يعملون الحسن ، لأنه حسن تتحقق به حكمته ، وتقوم به سنته فى صلاح البشر . ثم بين أحق الناس بالصدقة فقال :

﴿ **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله . . لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً** ﴾ أى اجعلوا ما تنفقون للذين ذكر الله صفاتهم الخمس التى هى من أجّل الأوصاف قدرا :

١ - الإحصار فى سبيل الله ، والمراد به حبس النفس للجهاد أوالعمل فى مرضاة الله ، إذ هم لو اشتغلوا بالكسب لتعطلت المصلحة العامة التى أحصروا فيها ، وحبسوا أنفسهم لها ، وتجب نفقتهم فى بيت المال . ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية فى العصر الحديث ، فإن حبس الشخص نفسه فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح كالجهاد وطلب العلم ، وكان يستطيع الكسب فى أوقات فراغه ؛ لم يحل له الأخذ من الصدقة .

٢ - العجز عن الكسب والضرب فى الأرض للتجارة ونحوها بسبب المرض أو الخوف من العدو ، وهذا هو المقصود بقوله : ﴿ **لا يستطيعون ضربا فى الأرض** ﴾ .

٣ - التعفف والمبالغة فى التنزه عن الطمع مما فى أيدى الناس ، فإذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم ظنهم أغنياء . وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ .

٤ - أن لهم سيما خاصة تترك معرفتها إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ، إذ صاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر وتعفف ، ولا يختص ذلك بخشوع وتواضع ، ولا برثاثة فى الثياب ، فرب سائل يأتيك خاشع الطرف والصوت رث الثياب ، تعرف من سيماه أنه غنى وهو يسأل الناس تكثرا ، وكم رجل يقابلك بطلاقة وجه ، وحسن بِزّة ، فتحكم عليه فى لحن قوله ، وأمارات وجهه أنه فقير عزيز النفس . وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ **تعرفهم بسيماهم** ﴾ .

٥ - ألا يسألوا الناس شيئا مما فى أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين وأهل الكُودية . وقد يكون المعنى ـ أنهم لا يسألون أحدا شيئاً لا سؤال إلحاف ولا سؤال رفق واستعطاف .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ليس المسكين الذى يطوف على الناس ، ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه ، و يقوم فيسأل الناس شيئاً)[1] .

والسؤال محرم لغير ضرورة . يروى أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّة سوِىّ » والمرة بكسر الميم ، والسَّوِىّ هو السليم الأعضاء ، والمراد به القادر على الكسب . وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : يارسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه أو يعشيه » . وروى أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من سأل الناس : أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ، فليستقل منه أو ليستكثر) .

وروى أحمد والبخارى ، ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا : أعطاه أو منعه)[2] .

فمن يُعلم أنه يسأل لنفسه تكثرا كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفه وهم قادرون على العمل ـ لا يعطى شيئا ، فقد رأى عمر رضى الله عنه سائلا يحمل جرابا فأمر أن ينظر فيه فإذا هو خبز ، فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى أهل الصُّفة وهم أربعمائه من فقراء المهاجرين رصدوا أنفسهم لحفظ القرآن الكريم والجهاد فى سبيل الله ، ولم يكن لأكثرهم مأوى ، لذلك كانوا يقيمون فى صُفَّة المسجد (موضع منه مُظلّ) وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها ، فهم محصورون فى سبيل الله بهذه الهجرة ومحصورون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن ، وقد كان حفظه حينئذ من أفضل العبادات على الإطلاق ، لأنهم ما كانوا يحفظونه إلا للفهم والاهتداء والعمل به ، وحفظ الدين بحفظه ، وكانوا يحفظون بيان النبى ﷺ بسنته القولية وسنته العملية . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وقف يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : (أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفقائى)[3] .

ولا يحل لأهل التكايا ومشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس ، لأنهم لم ينقطعوا لتعلم علم ولا غزو فى سبيل الله ، بل قصارى أمر الأولين أن يأكلوا الصدقات والأوقاف ليعبدوا الله فى هذه التكايا فهى لهم كالأديار

(١) صحيح مسلم بشرح النووى حـ ١ صـ ٧٧ ، ٧٨ ط الشعب.
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ صـ ٣٩٩ ط دار الفكر .
(٣) نقص

للنصارى وهم فيها كالرهبان وإن كان بعضهم قد يتزوج.وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلدا بعد آخر ، ويكلفون من يستضيفونه الذبائح شيئاً كثيراً من الطعام ، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا ، بل قد يسلبون وينهبون باسم الدين ، وفى معرض الكرامات ، وهؤلاء يشبهون أنفسهم بأهل الصفة،ويزعمون أن لأكلهم أموال الناس بالباطل أصلا فى الكتاب والسنة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴿ وماتنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فلا يخفى عليه حسن النية والاخلاص له فى العمل ، ولا تحرى النفع به وايتاؤه أحق الناس به ، فهو يجازى عليه بحسب هـذا ولا يخفى ما فى هـذا الترغيب فى الانفاق ، ولا سيما على مثل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم . .

قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . يقول ابن كثير : هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار ، وجميع الأحوال من سر وجهر حتى إن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضا كما ثبت فى الصحيحين،أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص حين عاده مريضا عام الفتح ، وفى رواية حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل فى فى امرأتك » روى الامام أحمد باسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : (إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقه يحتسبها كانت له صدقة) . قوله تعالى:﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أى ثواب ما أنفقوا عند الله فى الآخرة ولا خوف عليهم مما سيأتى ولاهم يحزنون على ما مضى فأى أمن وأمان أعظم من هذا لا خوف ولا حزن[1] .

الربا وآكلوه

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٨١ ، ٤٨٢ ط الشعب .

أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

المفردات:يأكلون : أى يأخذون ويتصرفون فيه بسائر أنواع التصرفات ، **والربا** : لغة الزيادة يقال ربا الشىء يربو إذا زاد ، ومنه الرابية ، لما علا من الأرض فزاد على ما حوله.**والخبط** : الضرب على غير اتساق ، يقال ناقة خبوط إذا ضربت الأرض بقوائمها ، ويقال للرجل يتصرف فى الأمور على غير هدى : هو يخبط خبط عشواء . والعشواء : الناقة الضعيفة البصر **والمسّ** : الجنون ، يقال مُسّ الرجل فهو ممسوس إذا جُن ، **والموعظة** : العظة والزجر ، **والمحق** : نقص الشىء حالا بعد حال كمحاق القمر . **ويربى** : يزيد ويضاعف ، **لا يحب** : أى لا يرتضى ، **والكفّار** : المقيم على الكفر المتعاد له . **والأثيم** : المنهمك فى ارتكاب الآثام ، **اتقوا الله** : أى قوا أنفسكم عقابه ، **وذروا** : أى أتركوا . **فأذنوا** : أى فاعلموا ، **بحرب من الله** : أى بغضب منه ، وحرب من رسوله بمعاملتكم معاملة البغاة وقتالكم بالفعل فى عصره ، واعتباركم أعداء له فى كل عصر ، **لا تظلمون** : أى لا تفعلون الظلم بغرمائكم بأخذ الزيادة ، **ولا تظلمون** بنقص شىء من رأس المال ، **العسر** : الإعسار ، ويكون بفقر المال أو كساد المتاع . **والنظرة** : الانتظار ، **والميسرة** : اليسار والسعة .

كان الكلام قبل هذا فى آيات الصدقة والنذور ، والمتصدق يعطى المال من غير عوض ابتغاء وجه الله ــ وهنا ذكر الكلام على الربا لأن المرابى يأخذ المال بلا عوض يقابله ، وقد أفاض القرآن الكريم فى ترغيب المسلمين فى الصدقات حتى يسد الخلّة ويُغنى الناس عن اللجوء إلى سبل الحرام ، حتى لقد بلغ أن القرآن جمع بين الإنفاق والنذر فى آية بلغت من العظمة إلى حد أنها اقترنت بعلم الله قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾[1] فإن لم يكن هناك صدقات أو نذور وإن لم تسمح نفس ابن آدم بالصدقة ابتغاء مرضاة الله فليعط المال قرضا ، جاء ذلك فى آية الدين التى ذكرت بعد آيات الربا ، فإن لم يثق فيمن يقرضه فليطلب الرهن من المقترض للاستيثاق من أداء الدين.قال تعالى : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ﴾[2] وهكذا سد الإسلام كل باب يؤدى إلى الربا ، فالصدقات والوفاء بالنذور والقرض الحسن والرهن كل هذه تقف سدا أشد من سد يأجوج ومأجوج ، لتسد كل ثغرة تؤدى إلى هذا البلاء الجسيم والنار التى ترعى فى المجتمع وتسرى سريان السم الزعاف فى الاحشاء والسعير فى الهشيم ؛ حتى لقد قال تعالى فى شأن هذا الربا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ فماذا قال الفقهاء عن الربا ؟

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٠ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

الربا فى اللغة : الزيادة ؛ والمقصود به هنا : الزيادة على رأس المال ، قلت أو كثرت يقول الله سبحانه : ﴿ **وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ .

حكمه : وهو محرم فى جميع الأديان السماوية ، ومحظور فى اليهودية والمسيحية والإسلام ، جاء فى العهد القديم : (إذا قرضت مالا لأحد من أبناء شعبى ، فلا تقف منه موقف الدائن . لا تطلب منه ربا لمالك) . آية ٢٥ فصل ٢٢ من سفر الخروج وجاء فيه أيضا : (إذا افتقر أخوك فاحمله . . لا تطلب منه ربحا ولا منفعة) . آية ٣٥ فصل ٢٥ من سفر اللاويين . إلا أن اليهود لا يرون مانعا من أخذ الربا من غير اليهودى . وقد رد عليهم القرآن ، ففى سورة النساء : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ ، وفى كتاب العهد الجديد : (إذا أقرضتم لمن تنتظرون منه المكافأة ، فأى فضل يعرف لكم ؟ ولكن افعلوا الخيرات ، وأقرضوا غير منتظرين عائدتها وإذا يكون ثوابكم جزيلا) . واتفقت كلمة رجال الكنيسة على تحريم الربا تحريما قاطعا ، استنادا إلى هذه النصوص . قال سكوبار : إن من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحدا خارجا عن الدين .

وقال القسيس بونى : « إن المرابين يفقدون شرفهم فى الحياة الدنيا ، وليسوا أهلاً للتكفين ، بعد موتهم » . والقرآن الكريم تحدث عن الربا فى عدة مواضع مرتبة ترتيبا زمنياً ، ففى العهد المكى نزل قول الله سبحانه : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾[1] . وفى العهد المدنى نزل تحريم الربا صراحة فى قول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[2] وآخر ما ختم به التشريع قول الله سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾[3] .

وفى هذه الآية رد قاطع على من يقول : إن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافا مضاعفة ، لأن الله لم يبح إلا رد رءوس الأموال دون الزيادة عليها . وهذا آخر ما نزل فى هذا الأمر ، وهو من كبائر الإثم ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات) ، قالوا : وما هن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق،وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم،والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[3] ، وقد لعن الله كل من اشترك فى عقد الربا ، فلعن الدائن الذى يأخذه ، والمستدين الذى يعطيه، والكاتب الذى يكتبه والشاهدين عليه ، روى البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه)[4] روى الدارقطنى عن عبدالله بن حنظلة أن النبى ﷺ

(١) سورة الروم آية : ٣٩ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٢٠ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٢ ط دار الفكر .
(٤) جامع الأحاديث جـ ٥ ص ٢٨٧ .

قال : (الدرهم ربا أشد عند الله تعالى من ست وثلاثين زنية فى الخطيئة)[١] . . وقال ﷺ : (الربا تسعة وتسعون بابا أدناها كأن يأتى الرجل بأمه)[٢] .

الحكمة من تحريم الربا :

الربا محرم فى جميع الأديان السماوية ، والسبب فى تحريمه ما فيه من ضرر عظيم :

١ - أنه يسبب العداوة بين الأفراد ، ويقضى على روح التعاون بينهم . والأديان كلها ، ولا سيما الإسلام ، تدعو إلى التعاون والإيثار وتبغض الأثرة والأنانية واستغلال جهد الآخرين .

٢ - وأنه يؤدى إلى خلق طبقة مترفة لا تعمل شيئا ، كما يؤدى إلى تضخيم الأموال فى أيديها دون جهد مبذول ، فتكون كالنباتات الطفيلية تنمو على حساب غيرها . والإسلام يمجد العمل ويكرم العاملين ويجعله أفضل وسيلة من وسائل الكسب ، لأنه يؤدى إلى المهارة ، ويرفع الروح المعنوية فى الفرد .

٣ - وهو وسيلة الاستعمار ، ولذلك قيل : الاستعمار يسير وراء تاجر أو قسيس . ونحن قد عرفنا الربا وآثاره فى استعمار بلادنا .

٤ - الإسلام بعد هذا يدعو إلى أن يقرض الإنسان أخاه قرضا حسنا إذا احتاج إلى المال ويثيب عليه أعظم مثوبة .

﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ .

والربا قسمان (١) ربا النسيئة (٢) وربا الفضل .

ربا النسيئة : وربا النسيئة ، هو الزيادة المشروطة التى يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل وهذا النوع محرم بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة .

ربا الفضل : وربا الفضل ، وهو بيع النقود بالنقود أو الطعام بالطعام مع الزيادة وهو محرم بالسنة والإجماع لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة . وأطلق عليه اسم الربا تجوزا . كما يطلق اسم المسبب على السبب . روى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : (لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين ، فإنى أخاف عليكم الرماء) أى : الربا . نهى عن ربا الفضل لما يخشاه عليهم من ربا النسيئة وقد نص الحديث على تحريم الربا فى ستة أعيان :

الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح . فعن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، الآخذ والمعطى سواء) . رواه أحمد والبخارى .

علة التحريم : هذه الأعيان الستة التى خصها الحديث بالذكر تنظم الأشياء الأساسية التى يحتاج

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربى .

الناس إليها والتى لا غنى لهم عنها ؛ فالذهب والفضة هما العنصران الأساسيان للنقود تنضبط بهما المعاملة والمبادلة فهما معيار الأثمان الذى يرجع إليه فى تقويم السلع . وأما بقية الأعيان الأربعة فهى عناصر الأغذية وأصول القوت الذى به قوام الحياة .

فإذا جرى الربا فى هذه الأشياء كان ضارا بالناس ومفضيا إلى الفساد فى المعاملة ، فمنع الشارع منه رحمة بالناس ورعاية لمصالحهم ويظهر من هذا أن علة التحريم بالنسبة للذهب والفضة كونهما ثمنا ، وأن علة التحريم بالنسبة لبقية الأجناس كونها طعاما ، فإذا وجدت هذه العلة فى نقد آخر غير الذهب والفضة أخذ حكمه ، فلا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد . وكذلك إذا وجدت هذه العلة فى طعام آخر غير القمح والشعير والتمر والملح ، فإنه لا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد .

روى مسلم عن معمر بن عبد الله عن النبى ﷺ : أنه نهى عن بيع الطعام إلا مثلا بمثل ، فكل ما يقوم مقام هذه الأجناس الستة يقاس عليها ويأخذ حكمها ، فإذا اتفق البدلان فى الجنس والعلة حرم التفاضل وحرم النساء أى التأجيل ، فإذا بيع ذهب بذهب أو قمح بقمح فإنه يشترط لصحة هذا التبادل شرطان :

١ - التساوى فى الكمية بقطع النظر عن الجودة والرداءة للحديث المذكور ، ولما رواه مسلم (أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ بشىء من التمر ، فقال له النبى ﷺ : ما هذا من تمرنا ؟ فقال الرجل : يارسول الله بعنا تمرنا صاعيه بصاع : فقال ﷺ : ذلك الربا ،ردوه ثم بيعوا تمرنا ثم اشتروا لنا من هذا) . وروى أبو داود عن فضالة قال : (أتى النبى ﷺ بقلادة فيها ذهب وخرز اشتراها رجل بتسعة دنانير أو سبعة ؛ فقال النبى ﷺ : لا ، حتى تميز بينهما قال : فرده حتى ميز بينهما) . ولمسلم : (أمر بالذهب الذى فى القلادة فنزع وحده ، ثم قال : الذهب بالذهب وزنا بوزن) .

٢ - عدم تأجيل أحد البدلين ، بل لابد من التبادل الفورى ، لقوله ﷺ : (إذا كان يدا بيد) ، وفى هذا يقول الرسول ﷺ :

(لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ، ولا تُشِفُّوا : أى تفضلوا . بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا غائبا منها بناجز) . رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد .

وإذا اختلف البدلان فى الجنس واتحدا فى العلة ، حل التفاضل وحرم النساء . فإذا بيع ذهب بفضة أو قمح بشعير فهنا يشترط شرط واحد وهو الفورية . ولا يشترط التساوى فى الكم بل يجوز التفاضل .

روى أبو داود أن النبى ﷺ قال : (لا بأس ببيع البر بالشعير ، والشعير أكثرهما ، يدا بيد) ، وفى حديث عبادة عند أحمد ومسلم : (فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد) وإذا اختلف البدلان فى الجنس والعلة فإنه لا يشترط شىء فيحل التفاضل والنساء . فإذا بيع الطعام بالفضة حل التفاضل والتأجيل ، وكذا إذا بيع ثوب بثوبين أو إناء بإناءين . والخلاصة أن كل ما سوى الذهب والفضة

والمأكول والمشروب لا يحرم فيه الربا ، فيجوز بيع بعضه ببعض متفاضلاً ونسيئة ، ويجوز فيه التفرق قبل التقابض ، فيجوز بيع شاة بشاتين نسيئة ، ونقدا ، وكذلك شاة بشاة لحديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أمره أن يأخذ فى قلائص الصدقة البعير بالبعيرين إلى الصدقة ، أخرجه أحمد وأبو دواد والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . ورواه البيهيقى ، وقوى الحافظ ابن حجر إسناده . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله ﷺ اشترى عبلا بعبدين أسودين ، واشترى جارية بسبعة أرؤس وإلى هذا ذهب الشافعى .

مسائل تتعلق بالربا

قال جمهور الأئمة : لا يجوز بيع حيوان يؤكل بلحم من جنسه ، فلا يجوز بيع بقرة مذبوحة ببقرة حية يقصد منها الأكل ، لما رواه سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الحيوان باللحم .

لا يجوز بيع الرطب . بما كان يابسا . روى مالك وأبو دواد عن سعد بن أبى وقاص أن النبى ﷺ سئل عن بيع الرطب بالتمر ؟ فقال : أينقص الرطب إذا يبس ؟ قالوا نعم . فنهى عن ذلك . ونهى رسول الله ﷺ عن بيع العينة ، لأنه ربا وإن كان فى صورة بيع وشراء . ذلك أن الانسان المحتاج إلى النقود يشترى سلعة بثمن معين إلى أجل ، ثم يبيعها ممن اشتراها منه بثمن حال أقل ، فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذى أخذه عاجلا . وهذا البيع حرام ويقع باطلا .

١ - روى ابن عمر أن النبى ﷺ قال : (إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل الله بهم بلاء ، فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم) .

٢ - وقالت العالية بنت أيفع بن شرحبيل (دخلت أنا وأم ولد زيد بن أرقم وامرأته على عائشة رضى الله عنها ، فقالت أم ولد زيد بن أرقم : إنى بعت غلاما من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم نسيئة ، ثم اشتريته بستمائة درهم نقدا ، فقالت بئس ما اشتريت ، أبلغى زيد بن أرقم : أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب » أخرجه مالك والدارقطنى[1] .

الآيات:وبعد أن بين لنا الفقهاء رحمهم الله تعالى المسائل التى تتعلق بالربا نأخذ بعد ذلك فى تفسير الآيات ، حتى يتضح الأمر لمن أراد أن يذكر ، وليكون فى ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال الشيخ المراغى الربا قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فالأول : يكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود كسنة أو شهر مع اشتراط الزيادة فى نظير امتداد الأجل ، وهو المستعمل الآن فى المصارف المالية وهو الذى نص القرآن الكريم على تحريمه وكان متعارفاً فى الجاهلية وقت التنزيل قال ابن جرير : إن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول الذى عليه المال : أخر عنى دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه : ا هـ .

---

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربى .

والتعامل بهذا النوع من الكبائر وقد ورد فى الحديث « لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده » .

والثانى:يكون فى بيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر كأن يبيعه إردبا من القمح الهندى بثلاث عشرة كيلة من القمح البلدى أو أقة عنب مصرى بأقة وربع من عنب أزمير أو قنطارا من فحم انجلترا بقنطار ونصف من فحم إيطاليا ، وهكذا الحكم فى جميع المكيلات والموزو نات والنقدين (الذهب والفضة) لما جاء فى الخبر من قوله ﷺ : (لا تبيعوا الذهب بالذهب والورق بالورق (الفضة) والبُرّ بالبُرّ والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عينا بعين يداً بيد)[١] . والتعامل به محرم أيضاً .

ويضيف الشيخ المراغى قائلاً : وقد زعم كثير من المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب بلاد المدنية والحضارة ونهلوا من مناهل العلم هناك ، إن تحريم الربا فى الإسلام هو العقبة الكئود فى مجاراة الأمم الإسلامية للبلاد الغربية فى الثروة التى هى مناط العزة والقوة فى العصر الحديث ويحتجون بأن المسلمين مامُنوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدى الأجانب إلا بتحريم الربا فإنهم لاحتياجهم إلى الأموال يأخذونها من الأجانب بالربا الفاحش ، ومن كان منهم غنيا لا يعطى ماله بالربا فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لا ينمو وهم يريدون بذلك أن الدين قد وقف عقبة كأداء فى أهم مسألة عمرانية اجتماعية ، وهذه حجة أوهى من بيت العنكبوت وأوهام يزينها لهم الشيطان لم يمحصوها حق التمحيص ، فإن المسلمين فى هذا العصر لا يحكمون الدين فى شىء من أعمالهم ومكاسبهم إذ لو حكموه لما استعانوا بالربا ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم ، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين ؟ فالأمم جميعاً قد سبقتنا إلى إتقان ذلك فلماذا لا نتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم وديننا يدعونا إلى السبق فى إتقان كل شىء ؟ .

وفى الحق أن المسلمين قد نبذوا الدين وراءهم ظهريا ، فلم يبق منه إلا تقاليد وعادات ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، فالدين لم يكن عائقاً لهم عن الرقى بل هو خير الأديان فى الدعوة إلى العمل والحث على الكسب كما قال تعالى : ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وقال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾[٣] .

فالأمة الإسلامية ما ارتفعت إلا بالدين وما سقطت بعد ما ارتفعت إلا بترك الدين مع الجهل بالسبب الذى أفضى بها إلى ذلك ، إلى أن صارت تجعل علة الرقى سبباً فى الانحطاط فلو اتبعت حكوماتنا وأفرادنا أوامر الدين وتركت التعامل بالربا مع الأجانب ، لما ضاعت ثروتنا ولا ذهب ملكنا ، وكان الدين وحده هو العاصم لنا فالربا : مسألة اجتماعية كبيرة اتفقت فى حكمها الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والإسلام ، لكن اختلف فيها أهل الأديان فاليهود كانوا يرابون غيرهم والنصارى يرابى بعضهم بعضاً ويرابون سائر الناس ، والمسلمون حفظوا أنفسهم من هذه الرذيلة ردحا طويلاً من الدهر ، ثم قلدوا

(١) الجامع الصغير للسوطى جـ ١ ص ٦٦٩ .
(٢) سورة الملك آية : ١٥ .
(٣) سورة الجمعة آية : ٩ .

غيرهم فيها ثم انتشرت بينهم فى العصر الحديث فى أكثر الأقطار ، والسر فى هذا أنهم قلدوا حكامهم فى هذا السبيل بل كثيراً ما ألزم الحكام الرعية بالتعامل بالربا أداء للضرائب التى يفرضونها عليهم . ويلخص الشيخ المراغى أسباب تحريم الربا فيقول : ويمكن أن نلخص الأسباب التى لأجلها حرم الدين الربا فيما يلى :

١ - إنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة ، كأنواع الحرف والصناعات لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من إنماء ماله ، خف عليه الكسب وسهلت لديه أسباب العيش فيألف الكسل ويمقت العمل ويتجه همه إلى أخذ أموال الناس بالباطل وتزداد شراهته فى الاستيلاء على كل ما يستطيع أن يبتزه من أموالهم فلا يرأف بفقير ولا يشفق على بائس ولا يرحم مسكينا ، وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمات كقحط فى البلاد أو حروب تشتد فيها الحاجة إلى الأقوات فيضطر الفقراء إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستنزفون دماءهم ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم .

٢ - إنه يؤدى إلى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات إذ هو ينزع عاطفة التراحم من القلوب ويضيع المروءة ويذهب المعروف بين الناس ويحل القسوة محل الرحمة ، حتى إن الفقير ليموت جوعاً ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه ومن جراء هذا منيت البلاد ذات الحضارة التى تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية ، فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على أصحاب الأموال وأضربوا عن العمل الفينة بعد الفينة والمرة بعد المرة .

ومنذ فشا الربا فى البلاد المصرية ضعفت فيها عاطفة التعاون والتراحم وأصبح المرء لا يثق بأقرب الناس إليه ولا يقرضه إلا بمستند وشهود بعد أن كان المقرض يستوثق من المقترض ولو أجنبياً عنه بألا يحدث أحداً بأنه اقترض منه ، وما كان المقرض فى حاجة فى وصول حقه إليه إلى مطالبة ، بلا محاكم ومقاضاة .

٣ - إن الله جعل طريق التعامل بين الناس فى معايشهم أن يستفيد كل منهم من الآخر فى نظير عوض لكن فى الربا أخذ مال بلا عوض وهذا نوع من الظلم لأن للمال حقاً وحرمة فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه قهراً بطريق غير مشروع قال ﷺ : (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه)[1] .

ولا ينبغى اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً من بقاء رأس المال فى يد المدين زمناً لو كان فيه فى يد الدائن لاستفاد منه بطريق وسائل الكسب كتجارة وزراعة ونحوها ، لأن هذا ربما لا يحصل وإن حصل فربما لا تتحقق الاستفادة ؛ أما أخذ الزائد فى الربا فمتيقن ولا يجوز مقابلة المحتمل الحصول بالمؤكد المتيقن .

٤ - أن عاقبته الخراب والدمار فكثيراً ما رأينا ناساً ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم بأكلهم الربا وفى حديث ابن مسعود عن أحمد وابن ماجه وابن جرير : (إن الربا وإن كثر فعاقبته تصير إلى قل) .

والسر فى هذا أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ، ويزين لهم الشيطان إنفاقه فى وجوه من الكماليات التى يمكن الاستغناء عنها ويغريهم بالمزيد من الاستدانة ولا يزال ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم فإذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ولا يزالون يماطلون

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٧٣ ط دار الفكر .

ويؤجلون ، والدين يزيد يوماً بعد يوم حتى يستولى الدائنون قسراً على كل ما يملكون فيصبحون فقراء معدمين ، وصدق الله : ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ هذا تصوير لحال أكلة الربا عندما يقومون من قبورهم بعد الموت ، إنهم يقومون من القبور يوم القيامة كمن به صرع من الشيطان.وما من شك فى أن أكلة الربا من أولياء الشيطان فقد ملأوا بطونهم من الوباء والبلاء ، ولم يتحروا الحلال من الحرام ، ويرحم الله نساء المؤمنين كانت الواحدة منهن توصى زوجها كل صباح فتقول له يافلان : اتق الله فينا ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا لكننا لا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . . إن تخبط الشيطان لهم إنما هى الحيرة فى أسوأ أحوالها ، إنهم كمن به جنون تراه دائماً شارداً ، غير مستقر فزعاً غير مطمئن ، وقد وردت للمفسرين أقوال يجمل بنا أن نذكرها مفصلة . . عن ابن عباس رضى الله عنه قال : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق . . وعنه أيضاً قال : « يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب » . وقرأ : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ وذلك حين يقوم من قبره .

وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء كما هو مذكور فى سورة سبحان : (أنه عليه السلام مر ليلتئذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل : هؤلاء أكلة الربا) . رواه البيهقى مطولاً[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ . قال : هؤلاء أكلة الربا)[2] رواه أحمد .

وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة فيفغر له فاه ، فيلقمه حجراً . . وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا[3] يقول ابن كثير : وقوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه ، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : « إنما الربا مثل البيع » وإنما قالوا : « إنما البيع مثل الربا » أى هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أى هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردا عليهم أى على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[4] .

وليس الجنون والحيرة والاضطراب الذى يصيب أكلة الربا ليس ذلك كله مقصوراً على قيامهم من

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٨٣ ط دار الشعب .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .

قبورهم بل إن حالهم فى الدنيا كذلك فهم فى فزع دائم يقومون من نومهم مشدودين إلى جمع المال بأى وسيلة محرمة ولو كان لأحدهم واديان من ذهب لا بتغى ثالثاً ولا يملأ جوفهم إلا تراب القبر . فهم دائما فى حال صرع وجنون كأن بهم مساً من الشيطان ، فترى الواحد منهم كالذى استهواه الشياطين فى الأرض حيران بين موائد القمار والتعامل بالربا ، وقد يكون قولهم إنما البيع مثل الربا إمعانا منهم وإصراراً على حل الربا بل هو فى باب الحلال أوقع من البيع حيث جعلوا البيع مشبهاً والربا مشبهاً به وشتان ثم شتان بين المشبه والمشبه به . . ومن ثم وقد رد عليهم العلى الحكيم قائلا:﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ إذ أن البيع معاملة بعيدة عن الاستغلال والترهل وامتصاص الدماء ، أما الربا ففيه كل تلك العلل وشتان بين أن يشترى الإنسان سلعة كالقمح أو اللحم أو الفاكهة ليستفيد بها وبين أن يقترض شيئا من المال من أحد المرابين فيستغل عذره ويفرض عليه الزيادة على الشىء الذى أخذه من المال فيكون مثله كالحشرات التى تعيش على دماء الأصحاء حتى تتركهم تحت أطباق الثرى أجساداً هامدة ، ومن هنا فإن الإسلام أغلق باب الربا إذ فتح باب البيع وإغاثة الملهوف ، كذلك باب الصدقات والقرض الحسن والرهن للاستيثاق من أداء الدين ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ . فأى وجه من وجوه الشبه بين البيع والربا وقد أحب الله هذا وحرم ذاك « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله » .

أى من بلغته الأحكام بتحريم الربا فانتهى عنه ولم يتعامل به فله ما سلف أى فقد عفا الله عما كان يتعامل به قبل بلوغ الأحكام وتجاوز عنه ربه إذ أنه لا ذنب له قبل مجىء موعظة الله ، وأمره إلى الله ، أى وقد أمر الله فيها بالعفو ، وهذا بالنسبة إلى الذين عاصروا الوحى ، أما الذين جاءوا بعد نزول الأحكام على رسول الله ﷺ فليس لهم عذر بعدما أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام دينا . وقد جاء النبى بتلك الشريعة بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولذا قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى بعد نزول الحكم ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ أما من عاد بعد بيان الحكم ، فينتقم الله منه قال تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . لأنهم عادوا إلى اقتراف المخالفات بعدما وضحت الأحكام وانجلت الظلماء وبرح الخفاء.ومن هنا فقد حرم الإسلام صورا من المعاملات ، كالعينة وصورتها أن الإنسان المحتاج إلى النقود يشترى سلعة بثمن معين إلى أجل ثم يبيعها ممن اشتراها منه بثمن حال أقل فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذى أخذه عاجلاً وهذا البيع حرام ويقع باطلا . . كذلك حرم الإسلام بيع المزاينة ،وهو بيع الرطب بالجاف كذلك حرم المحاقلة وهو بيع القمح فى سنابله فى الحقل بالقمح على الأرض ، فعلى المسلم أن يتحرى ويعلم أن الحرام بين والحلال بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثيرمن الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام . فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس فاستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ، واعلم بأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وأن الظلم

لا يدوم ، وإذا دام دمر ، قال تعالى:﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ فالتعبير بالمحق فيه من الدلالة ما فيه ، فالله يسحق الربا من أصوله فيذر الديار بلاقع ـ ومهما كثر مال المرابى فهو قليل لا بركة فيه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون،﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ قال شعيب لقومه « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين » فاللهم ارزقنا الحلال وبارك لنا فيه وباعد بيننا وبين الحرام كما باعدت بين المشرق والمغرب إن شجرة الربا ثمرتها مرة كالحنظل لأنها خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، أما ثمرة الحلال فإنها مباركة قال تعالى: ﴿ ويربى الصدقات ﴾ أى يزيدها وينميها ويبارك فيها ، لأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤ تى أكلها كل حين بإذن ربها ، والمرء فى ظل صدقته يوم القيامة حتى يقضى بين العباد ومن أراد الله فليلتمسه فى الفقراء عبدى أنفق أنفق عليك .

والمحسنـــون لهم على إحسانهم ... يـوم الإثابـة عشرة الأمثـال
وجزاء رب المحسنين يجل عـن ... عـدّ وعن وزنٍ وعن مكيـال

قال رسول الله ﷺ (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً ، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل)[1] .

قوله تعالى:﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ هاتان صيغتان من صيغ المبالغة (كفار أثيم) أى كثير الكفر والجحود لنعمة الله لا يعرف الشكر إلى قلبه سبيلا ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، جعظريا جواظا : أى قاسى القلب سىء الخلق ، فظ غليظ مهموم بأمر الدنيا ، غافل عن شئون الآخرة أثيم كثير الذنوب إنهم أكلة الحرام الذين رضعوا ألبان الاثم وشربوا من مائها الآسن . وعلى الجانب المقابل تشرق علينا أنوار الإيمان والعمل الصالح فيقول تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ هؤلاء آمنوا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ، فأحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم وجعلوا بينهم وبين النواهى حجاباً مستوراً وقنعوا بما قسم الله مصداقاً لقول الصادق المعصوم : (اتق المحارم تكن أعبد الناس وارضٍ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب لأخيك كما تحب لنفسك تكن مسلماً ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)[2] وعلى رأس تلك الأعمال الصالحة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، عبادة قلبية وعبادة مالية فمن أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا أرادت أن تتصدق مست درهم الصدقة بالمسك فيقال لها فى ذلك فتقول لأننى أضعه فى يد الله قبل أن أضعه فى يد المسكين أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾[3] . وما جزاء هؤلاء ؟ . لهم أجرهم عند ربهم . . أولئك جزاؤ هم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العالمين . . ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا هم يحزنون على ما مضى .

لا تـركنن إلى الـدنيـا ومـا فيهـا ... فـالموت لا شـك يفنينـا ويفنيهـا

(١) جامع الأحاديث للسيوطى جـ ٦ ص ١٣٤
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ صـ ١٤ دار الفكر
(٣) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين بتقواه فإنهم أسرع الناس امتثالا لأمر الله وذروا ما بقى من الربا ، أى أتركوا ما كان لكم عند الناس من زيادة على رأس المال فإن فعلتم ذلك فهذا دليل على إيمانكم فليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل وابن حيان والسدى أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدى الربا فى الإسلام بكسب الاسلام فكتب فى ذلك عتاب ابن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿ **يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾،﴿ **فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار . .

قوله تعالى:﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ قال ابن عباس فأذنوا بحرب أى استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وعنه قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ وقال على بن أبى طلحة عن أبى عباس ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه ، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه .

قوله تعالى : ﴿ **فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ .

التوبة ندم على ما فات وعزيمة على عدم العود وأداء الحقوق لأصحابها ،وليست التوبة كلمات تلوكها الألسنة وتتحرك بها الشفاه ، إنما التوبة كالدواء والذنوب كالداء ولكل داء دواء يستطب به ،وتوبة المرابى أن يأخذ رأس ماله دون زيادة حتى لا يظلم غيره وله الحق أن يأخذ رأس المال كاملاً حتى لا يظلم نفسه ﴿ **لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ . ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ . .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾ أمر من الله تعالى لأصحاب اليسار أن ينظروا المعسر الذى ضاقت يده إلى وقت الميسرة ، وذلك لأن الراحمين يرحمهم الرحمن ، وقد كان من عادة الجاهليين إذا حل دين أحدهم أن يقول للمدين إما أن تقضى وإما أن تربى فجاء الأمر من أرحم الراحمين بالإنظار بل وندبهم إلى أن يتصدقوا بالدين فإن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ، داووا مرضاكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء فما نقص مال من صدقة ، فإن كنتم تعلمون ما عند الله من عظيم الأجر وتفريج الكرب ، وزوال الغم وشفاء المريض لتصدقتم بالمال على ذوى الحاجات . .

﴿ وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ﴾. ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ . جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر من الزاد فإن السفر طويـل وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كئود .

قال ﷺ:(من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه)[1] وعن سليمان ابن بريدة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة) ، قال ثم سمعته يقول:(من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة) قلت سمعتك يارسول الله تقول « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقه » ثم سمعتك تقول:(من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة) قال « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقه »[2] وعن محمد بن كعب القرظى أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبىء منه فجاء ذات يوم فخرج صبى فسأله عنه فقال نعم هو فى البيت فناداه . فقال يافلان : اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا . فخرج إليه فقال ما يغيبك عنى ؟ فقال إنى معسر وليس عندى شىء قال آلله إنك معسر ؟ قال نعم فبكى أبو قتادة . ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ من نفس عن غريمه أو محا عنه ، كان فى ظل العرش يوم القيامة ﴾[3] رواه مسلم فى صحيحه .

وعن حذيفه بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ قال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها ـ قالها ثلاث مرات ـ قال العبد عند آخرها يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر . قال فيقول الله عز وجل : أنا أحق من ييسر ، ادخل الجنة »[4] .

وعن عبد الله بن سهل بن حنيف أن سهلا حدثه أن رسول الله ﷺ قال:« من أعان مجاهداً فى سبيل الله أو غازيا أو غارما فى عسرته أو مكاتباً فى رقبته أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله »[5] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر)[6] .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : (من كان له على رجل حق فأخره ، كان له بكل يوم صدقة)[7] .

قوله تعالى:﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون ﴾ روى أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩١ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩١ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩١ ط الشعب .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .
(٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

هذه الآية ، آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة : حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول .

جاءت هذه الآية الكريمة ختاماً لآيات الربا حتى يعلم الناس أن الدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، وأن العمر مهما طال فلابد من دخول القبر . فليحذروا عقاب الله فى يوم يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً . ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾ . فياله من يوم ما أطوله ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله ، ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون مازرعوا إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فبئس ما صنعوا .

آية المداينة

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

المفردات : تداينتم : داين بعضكم بعضاً . **إلى أجل مسمى** : أى موعد محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم لا بالحصاد وقدوم الحاج ، مما فيه جهالة ، **بالعدل** : أى بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين ، **ولا يأبى**: أى لا يمتنع .**كما علمه الله** : أى على الطريق التى علمه الله إياها من كتابة الوثائق . **وليملل** : أى وليلق على الكاتب ما يكتبه والإملال والإملاء بمعنى ، يقال أمّل على الكاتب وأملى عليه . **ولا يبخس**:أى ولا ينقص . **سفيهاً**:أى ضعيف الرأى لا يحسن التصرف فى المال لضعف عقله . **أو ضعيفاً**:أى صبياً وشيخاً هرماً. **أو لا يستطيع أن يمل**: أى بأن كان جاهلاً أو أبكم أو أخرس ، **واستشهدوا شهيدين**:أى اطلبوا أن يشهد رجلان . **ترضون** : أى ترضون دينهم وعدالتهم . **أن تضل** أى تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها . **ولا تسأموا** : أى لا تملوا ولا تضجروا . **أقسط** : أى أعدل . **وأقوم** أى وأعون على إقامتها على وجهها ، **وأدنى** : أى أقرب **ألا ترتابوا**:أى إلى انتفاء الريب فى جنس الدين وقدره وأجله . **تديرونها**:أى تتعاطونها بالتعامل يداً بيد . **والجناح** : الإثم والذنب **ولا يضار** أى ولا يفعل الضرر بالمتعاملين بالامتناع عن الكتابة أو الشهادة أو بالتحريف أو الزيادة أو النقص . **فسوق**:أى خروج عن الطاعة . **والرهان** واحدها رهن بمعنى مرهون . .

لما رغب الله تعالى عباده فى الإنفاق وضرب لذلك الأمثال ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة ﴾ وبين أن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم مثلهم فى ذلك ﴿ كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ بعد ذلك نهى سبحانه وتعالى عن التعامل بالربا نهياً بلغ إلى حد أن قال الله سبحانه:﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ وذكر العباد باليوم الآخر فقال:﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ لما كان ذلك كذلك جاءت آية الدين وهى أطول آية فى كتاب الله ، بين الله فيها أحكاماً تتعلق بالمعاملات المالية ، ذلك لأن الإسلام أمر بالحفاظ على النفس والعقل والمال والعرض (فنعم المال الصالح للعبد الصالح) وللفقهاء كلام فى الدين نذكره مفصلاً :

يقول الشيخ السيد سابق : شرع الله الدين قربة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى لما فيه من الرفق بالناس والرحمة بهم وتيسير أمورهم وتفريج كربهم . وإذا كان الإسلام ندب إليه وحبب فيه بالنسبة للمقرض فإنه أباحه للمقترض ولم يجعله من باب المسألة المكروهة لأنه يأخذ المال لينتفع به فى قضاء حوائجه ثم يرد مثله .

روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه) . رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

وعن أنس قال رسول الله ﷺ:(رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة) .

وعقد الدين عقد تمليك فلا يتم إلا ممن يجوز له التصرف ، ولا يتحقق إلا بالإيجاب والقبول كعقد البيع والهبة . وينعقد بلفظ القرض والدين والسلف وبكل لفظ يؤدى إلى معناه . فإذا ما تم العقد وحدد الأجل فليس للدائن أن يطالب بدينه قبل حلول الأجل ، قال تعالى:﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾ فهذا أمر بكتابة الدين حفاظاً على المال وعدم ضياعه . ويجوز الدين فى الثياب والحيوان فقد ثبت أن الرسول ﷺ استلف بكراً ، كما يجوز قرض ما كان مكيلا أو موزوناً أو ما كان من عروض التجارة كما يجوز قرض الخبز والخمير لحديث عائشة (قلت يا رسول الله إن الجيران يستقرضون الخبز والخمير ويردون زيادة أو نقصاً فقال : لا بأس إنما ذلك من مرافق الناس لا يراد به الفضل) .

وعن معاذ أنه سئل عن اقتراض الخبز والخمير فقال : سبحان الله إنما هذا من مكارم الأخلاق ، فخذ الكبير وأعط الصغير وخذ الصغير وأعط الكبير ، خيركم أحسنكم قضاء . . سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك (١) .

ولما شرع الله تعالى القرض ورغب فيه وأثاب عليه فإن حكمة المشروعية الرفق بالناس وتيسير أمورهم وبعيد كل البعد عن روح الإسلام إرهاق الناس والتعسير عليهم ، لذا فإن هناك قاعدة تقول « كل قرض جر نفعاً فهو ربا » فلا يجوز لصاحب المال أن يقصد من وراء القرض أى فائدة من المقترض وإنما عليه أن يقصد بعمله هذا وجه الله .

التعجيل بقضاء الدين قبل الموت :

روى الإمام أحمد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن أخيه مات وعليه دين فقال : هو محبوس بدينه فاقض عنه . فقال يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة ليس لها بينة فقال : أعطها فإنها محقة .

وروى أن رجلاً قال : (يا رسول الله أرأيت إن جاهدت بنفسى ومالى فقتلت صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أدخل الجنة ؟ قال : نعم.فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً قال : إلا إن مت وعليك دين وليس عندك وفاء وأخبرهم بتشديد أنزل فسألوه عنه فقال : الدين . . والذى نفسى بيده لو أن رجلاً قتل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل فى سبيل الله ما دخل الجنة حتى يقضى دينه) .

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله (قال كان رسول الله ﷺ لا يصلى على رجل مات وعليه دين فأتى بميت فقال : أعليه دين ؟ قالوا : نعم ديناران فقال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصارى : هما على يا رسول الله قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فلما فتح الله على رسوله ﷺ قال أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك ديناً فعلى قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته) .

وحديث البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه،ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله) .

---

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٥ ، ١٤٧ ط ١ دار الفكر .

مطل الغنى ظلم :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم ،وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع) رواه أبو داود وغيره .

استحباب إنظار المعسر : يقول الله سبحانه:﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

روى عن أبي قتادة أنه طلب غريماً له فتوارى ثم وجده فقال إنى معسر فقال . آلله ،قال:فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه »

وعن كعب بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله فى ظله)[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ياايها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾ هذا إرشاد من الله لعباده أن يكتبوا الدين خشية النسيان والجحود الذى قد يفضى إلى النزاع ويؤدى إلى العداوة والبغضاء . قال تعالى : ﴿ **وليكتب بينكم كاتب بالعدل** ﴾ أى بالقسط والحق ولا يجر فى كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : ﴿ **ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب** ﴾ أى ليس للكاتب أن يمتنع عن الكتابة إذ سئل ذلك وذلك كما علمه الله فليكتب . . قوله تعالى ﴿ **وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا** ﴾ أى وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين ولا ينقص منه شيئاً . . قوله جل شأنه : ﴿ **فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً** ﴾ أى سىء التصرف فى ماله محجوراً عليه للإسراف والتبذير ﴿ **أو ضعيفاً** ﴾ أى صغيراً أو مجنوناً ﴿ **أولا يستطيع أن يمل هو** ﴾ وذلك لعجزه عن الكلام كأن يكون أبكم أو ألكن ﴿ **فليملل وليه بالعدل** ﴾ أى ولى أمره بالعدل ؛ أى بالقسط والحق ، قوله تعالى : ﴿ **واستشهدوا شهدين من رجالكم** ﴾ أى اطلبوا شهادة رجلين حتى تكون شهادتهما بينة لإثبات الدين . قوله تعالى : ﴿ **فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ وإنما قامت شهادة الرجل بامرأتين فى المعاملات لأن رسالة المرأة فى بيتها وتدبير المعيشة والإشراف على التربية ، فليست ذات خبرة فى المعاملات والأسواق فهى كثيراً ما يعتريها النسيان فى مثل هذه الأمور ، لذا بين الله تعالى الحكمة فقال : ﴿ **أن تضل إحداهما** ﴾ أى تبتعد عن المطلوب للنسيان أو عدم الخبرة فتذكر إحداهما الأخرى وسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى وسبحان من يسر لعباده ما يليق بكل منهم فكل ميسر لما خلق له : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ وقال فى حق النساء : ﴿ **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾[2] .

---

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٩ - ١٥٢ ط ١ دار الفكر

(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الإستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن ، قالت يا رسول الله : ما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين[1] .

قوله تعالى:﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ أى أن الشاهدين يكونان معروفين بالعدالة حتى تقع شهادتهما موقع الرضا . قوله جل شأنه:﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ نهى من الله تعالى موجه إلى الشهداء ألا يمتنعوا عن أداء الشهادة إذا دعوا إليها وذلك حتى لا تضيع حقوق العباد ، قوله تعالى ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ﴾ هذا توجيه إلهى كريم حفاظاً على الحقوق ؛ فالله تعالى ينهى عن الملل من كتابة الحقوق صغيرة كانت أو كبيرة ، كل إلى أجله ، وقد بين الله تعالى الحكمة من ذلك فقال:« ذلكم أقسط عند الله » أى أعدل ، « وأقوم للشهادة » ، أى أعون على إقامتها على وجهها « وأدنى ألا ترتابوا ﴾ أى أقرب الطرق إلى نفى الريبة والشك والظن السيىء وسوء النية .

قوله تعالى:﴿ إلاأن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ﴾ أى إذا تم البيع والشراء وقبض البائع الثمن فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ذلك لأنه لا نزاع ولا شحناء .

﴿ واشهدوا إذا تبايعتم ﴾ وذلك أيضاً لإثبات الحق فى البيع والشراء ، كما أمر سبحانه وتعالى قبل ذلك بكتابة الدين والإشهاد ، كل هذا حتى لا يكون هناك اختلافات تؤدى إلى العداوة والبغضاء قال سبحانه : ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى موجه إلى كل كاتب وشهيد فليس للكاتب أن يحرف فى كتابته أو يغير حتى لا يكون هناك ضرر بأحد المتعاقدين ، والإسلام يقول فى قواعده الأصيلة : « لا ضرر ولا ضررا » . وعلى الشهيد ألا يكتم أو يغير فى شهادته ، إذ أن فى الكتمان والتغيير ضرراً بأحد المتعاقدين . قال تعالى : ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أى إن وقع الضرر فذلك خروج عن طاعة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وكما أمر الله تعالى بكتابة الدين فى أول الآية أمر بالتقوى فى ختامها إذ التقوى هى العاصمة والواقية من الوقوع فى المخالفات ، إذ هى خوف من الجليل فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ومن أحبه فقد استضاء بنوره ثم قال سبحانه : ﴿ ويعلمكم الله ﴾ أى يبين لكم الأحكام التى فيها سعادتكم . ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾[2] ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله[3] ﴾ ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[4] .

(١) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٧ ص ٥٨٥
(٢) سورة النساء آية : ٢٦
(٣) سورة البقرة آية : ١٤٠
(٤) سورة البقرة آية : ٢١٦
(٤) سورة البقرة آية : ٢٣٢
(٤) سورة آل عمران آية : ٦٦
(٤) سورة النور آية : ١٩
(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢

* وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لعباده إن كانوا مسافرين وتعذرت الكتابة أى كتابة الحقوق لعدم وجود الكاتب أو من يحسن الكتابة ، فليكن هناك رهن يأخذه الدائن للاستيثاق من أداء دينه ، ولا يتم ذلك إلا بقبض الشىء المرهون وقد أجاز الإسلام الرهن للاستيثاق من أداء الدين فإن كان هناك أمان وثقة بين الدائن والمدين بأن كان المدين معروفاً بحسن الأداء وكرم المعاملة ، فليس هناك ما يدعو إلى الكتابة وعلى المدين أن يؤدى الدين فى وقته لأنه مؤتمن لدى الدائن ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فلا يجحد ما عليه من الحق بحجة أنه ليس هناك كتابة تثبت ذلك وكما قال تعالى : ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ وقال هنا:﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ لأن كتمانها يؤدى إلى ضياع الحقوق ووقوع الظلم فيأكل بعض الناس أموال بعض بالباطل ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ لأن الكتمان عمل يؤدى إلى الإثم وسوء القصد وفساد النية والعداوة والبغضاء وكل هذه من أعمال القلوب وليعلم الجميع أن الله عليم بأعمال العباد وأفعالهم وخلجات نفوسهم وخطرات أفئدتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم .

المالك هو الله

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

لهذه الآية الكريمة تمام ارتباط بما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾[١] فإن الذى أحاط علمه بكل شىء له ما فى السموات وما فى الأرض . قال سبحانه : « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] . إنه المالك المتصرف الذى أحصى كل شىء عددا ، العليم بذات الصدور . الخبير بمكنون النفوس وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٣
(٢) سورة هود آية : ١٢٣

قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ المراد بما فى النفس ما استقر فيها وقوى بحيث أصبح ثابتا ، وذلك مثل الحسد الذى يؤدى إلى البغى،ومثل الظن السىء ومثل كتمان الشهادة ومثل البغضاء . كل هذه الأشياء من أعمال النفوس التى إذا استقرت وبلغت حد التمكن فإن الله تعالى يحاسب عليها بسببها ، أما حديث النفس الذى لم يصل حد العزم والتمكن والاستقرار ، فإن الله تعالى ، بفضله وكرمه قد تجاوز لهذه الأمة عما تحدثها بها أنفسها ما لم يعمل أحدهم أو يتكلم،وقد عاقب الله أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ذلك أن ما فى نفوسهم قد وصل إلى حد العزم والتصميم على الفعل ، فعاجلهم الله بالعقوبة وهم نائمون . فإذا اما أبدى الإنسان وأظهر ما استقر فى نفسه من الآثام أو أخفاها فلم يظهرها فإن الله تعالى يحاسبه على ذلك فيغفر لمن يشاء بمحض فضله ويعذب من يشاء بمحض عدله ، وذلك بمقتضى حكمته وعلمه وإرادته . وقد تنزه سبحانه عن الظلم والعبث فهو الحكم العدل المقسط ، وهو العفو الكريم الحليم الرحيم المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم . وكان الله شاكراً عليما ﴾ . وقد جاء ختام الآية ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فإن من له ما فى السموات وما فى الأرض من أخص خصائصه ، القدرة ﴿ قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية توجه فريق من الصحابة إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه شدة الحساب على ما فى النفس فماذا حدث ؟ لنستمع إلى ما رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبى هريرة قال : (لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوْا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا : أى رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة . وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ؟ فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله فى إثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ الآية ، قال فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ إلى آخرها) . وقوله نسخها الله : أى أزال ما أخافهم من الآية الأولى وحوله إلى وجه آخر[٢] .

أركان الإيمان

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦
(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ١ ص ٥٠١ ط الشعب

﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

المفردات :

﴿ **لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ أى إن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء لا يفضل بعضهم بعضاً ، **سمعنا** : أى سماع تدبر وفهم . **والتكليف** : الإلزام بما فيه كلفة . **والوسع** : ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولاعسر ، والاكتساب يفيد الجد فى العمل . **والمؤاخذة** : المعاقبة لأن من يراد عقابه يؤخذ بالقهر ، ﴿ **ما لا طاقة لنا** ﴾ أى ما لا قدرة لنا عليه ويشق علينا فعله ، والإصر : العبء الثقيل يأصر صاحبه ويحبسه مكانه ، إذ لا يطيق حمله لثقله ، والمراد به التكاليف الشاقة ، **مولانا** : أى مالكنا ومتولى أمورنا .

ورد فى فضل هاتين الآيتين أحاديث رويت عن رسول الله ﷺ ونسأل الله تعالى أن يلهمنا الرشد ويوفقنا إلى العمل الصالح ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه :

ــ عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلته كفتاه) .

ــ عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ (أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى) .

ــ عن أبى إسحق عن الحارث عن على قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش .

ــ وعن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) .

ــ عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسى ضحك وقال : (إنهما من كنز الرحمن تحت العرش) وإذا قرأ ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ استرجع .

ــ عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال فنزل منه ملك فأتى النبى ﷺ فقال له : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته[1] .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٠٥ - ٥٠٧ ط الشعب .

قوله تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ إخبار عن إيمان الرسول ﷺ بكل ما أنزل الله عليه من الوحى المعصوم ، وكذلك المؤمنون كلهم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ، كما آمنوا بالملائكة ، هم سفراء الله إلى خلقه وهم عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون . ما من موضع قدم فى السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد لله ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، وكما آمن المؤمنون بالله والملائكة آمنوا كذلك بالكتب المنزلة على الأنبياء توراة وإنجيلاً وزبوراً وقرآناً . كذلك آمنوا بالرسل ولم يفرقوا فى الإيمان بين رسول ورسول ، بل آمنوا بأن لله رسلاً وأنبياء وبدون استثناء كان الإيمان شاملاً لهم جميعاً . هذا على طريق الإجمال أما على طريق التفصيل فقد آمنوا بالرسل الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم وهم خمسة وعشرون جمعهم أحدهم فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومن آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وجب عليه أن يؤمن بكل ما جاء به محمد ﷺ ، وذلك كالبعث بعد الموت والقدر خيره وشره . وقد جاء بعد ذلك التصديق بالقلب الالتزام المطلق . قال تعالى : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ إذ حقيقة الإيمان كما قال الهادى البشير : ﴿ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ﴾ . ثم طلبوا من الله غفران الذنوب لأنهم يعتقدون أن المصير والمرجع والمآب إليه . ولقد منّ الله عليهم بعد ذلك بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ أى لا يحملها إلا ماتطيق حمله . فإن الله تعالى فرض فرائض فأدوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرّم حرمات فلا تنتكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . وقد دعا المؤمنون ربهم بتلك الدعوات : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ والنسيان هو فعل الشىء بدون تذكر ، كمن شرب أو أكل ناسياً فى نهار رمضان . والخطأ هو فعل الشىء بدون قصد كمن سبق ماء المضمضة إلى جوفه وهو صائم ، ولقد بشر الصادق المعصوم الأمة بتلك البشارة فقال : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

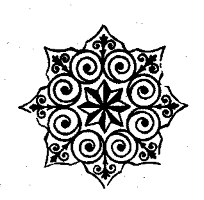
قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ المراد بالإصر ماثَقُل من التكاليف كما كان ذلك فى بنى إسرائيل كقطع مكان النجاسة من الثوب ودفع ربع المال فى الزكاة . ثم جاءت هذه الدعوة الكريمة ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أى من الشدائد والبأساء والضراء والمصائب والبلاء . إذ أننا عبيد إحسانه ونسأله العافية . ثم جاء بهذه الدعوات ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾ اعف عنا فلا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا واغفر لنا فلا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا وارحمنا فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به . فتوجهت كل دعوة من هذه الدعوات إلى مايناسبها من الدعوات السابقة .

﴿ أنت مولانا ﴾ أى مالك أمرنا فليس لنا مولى سواك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ برفع راية التوحيد ولواء الإسلام .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون لكل نفس ماكسبت من الخير وعليها ما اكتسبت من السوء لا تُظلم نفس شيئاً . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وقد اشتملت سورة البقرة على أصول العقائد وشعائر العبادات ومناهج السلوك ومبادىء الأحكام وقواعد النظام فكان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة (أى السحرة) والبيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان . وقد بدأها الله تعالى بالحديث عن الإيمان وختمها كذلك . وجاء فى آخرها آيتان نزلتا من كنز تحت العرش فكانت هذه السورة شافية كافية ، وافية فمن أخذها فقد أخذ بحظ وفير ،وله عند الله أجر كبير . نسأل الله ثوابها والعمل بها إنه نعم المولى ونعم النصيرو بالإجابة جدير .

وصلى الله عليه سيدنا محمد البشير النذير .



سورة آل عمران

من أسمائها : آل عمران والزهراء.
عدد آياتها : مائتان بإجماع القراء .
وهذه السورة مدنية : باتفاق جميع المفسرين . وكذلك كل سورة تشتمل على ذكر أهل الكتاب .
وكلماتها : ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون . وحروفها:أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمس وعشرون حرفاً .

مجموع فواصل آياتها (ل ق د ا ط ن ب م ر) يجمعها قولى : (لقد أطنب مُرّ) والقاف آخر آية واحدة ﴿ **ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ والهمز آخر ثلاث آيات ﴿ **لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ ﴿ **إنك سميع الدعاء** ﴾ ﴿ **كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾ .

مضمون السورة : مناظرة وفد نجران ، إلى نحو ثمانين آية من أولها ، وبيان المحكم والمتشابه ، وذم الكفار ، ومذمة الدنيا ، وشرف العُقبى ، ومدح الصحابة ، وشهادة التوحيد ، والرد على أهل الكتاب ، وحديث ولادة مريم ، وحديث كفالة زكريا ، ودعائه ، وذكر ولادة عيسى ومعجزاته ، وقصة الحواريين ، وخبر المباهلة (من البهلة وهى اللعنة) وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . والاحتجاج على النصارى ، ثم أربعون آية فى ذكر المرتدين ، ثم ذكر خيانة علماء يهود ، وذكر الكعبة ، ووجوب الحج ، واختيار هذه الأمة الفضلى والنهى عن موالاة الكفار ، وأهل الكتاب ، ومخالفى الملة الإسلامية . ثم خمس وخمسون آية فى قصة حرب أحد ، وفى التخصيص ، والشكوى من أهل المركز (هو الموضع يؤمر الجند أن يلزموه . وأهل المركز هم الرماة الذين أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلزموا أماكنهم بجانب أحد) . وعذر المنهزمين ومنع الخوض فى باطل المنافقين ، وتقرير قصة الشهداء وتفصيل غزوة بدر الصغرى ثم رجع إلى ذكر المنافقين فى خمس وعشرين آية ، والطعن على علماء اليهود ، والشكوى منهم فى نقض العهد ، وترك بيانهم نعت رسول الله ﷺ المذكور فى التوراة ، ثم دعوات الصحابة ، وجدهم فى حضور الغزوات واغتنامهم درجة الشهادة ، وختم السورة بآيات الصبر والمصابرة والرباط .

فضل السورة : عن أبى بريدة عن أبيه رضى الله عنه مرفوعاً : « تعلموا البقرة وآل عمران فانهما الزهراوان يظلان صاحبها يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف »[1]

وجه اتصالها بماقبلها

١- إن كلاً منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس فى الاهتداء به - فقد ذكر فى الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبون بين ذلك ، وفى الثانية طائفة الزائفين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ط الأوقاف .

الراسخين فى العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ، ويقولون كل من عند ربنا .

٢- إن فى الأولى تذكيراً بخلق آدم ، وفى الثانية تذكيراً بخلق عيسى وتشبيه الثانى بالأول فى أنه جرى على سنة سابقة فى الخلق .

٣ ــ إن فى كل منها محاجة لأهل الكتاب ، لكن فى الأولى إسهاب فى محاجة اليهود واختصار فى محاجة النصارى ، وفى الثانية عكس هذا ،لأن النصارى متأخرون فى الوجود عن اليهود فليكن الحديث معهم تالياً فى المرتبة للحديث الأول .

٤- إن فى آخر كل منها دعاء ، إلا أن الدعاء فى الأولى ينحو نحو طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ورفع التكليف بما لا يطاق ، وهذا مما يناسب بداءة الدين . والدعاء فى الثانية يرمى إلى قبول دعوة الدين وطلب الجزاء على ذلك فى الآخرة .

٥- إن الثانية ختمت بمايناسب بدء الأولى كأنها متممة لها ، فبدئت الأولى بإثبات الفلاح للمتقين ، وختمت هذه بقوله : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

المفردات : ﴿ الٓمٓ ﴾ حروف هجائية فيها إشارة أن هذا القرآن معجز لا يستطيع أحد أن يأتى بسورة من مثله ﴿ الله ﴾ : علم على واجب الوجود لذاته وهو المتصف بالجلال والكمال والجمال والإله هو : المعبود بحق المستغنى عمّن سواه المفتقر إليه جميع ما عداه ﴿ الحى ﴾ ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة ﴿ القيوم ﴾ : القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه ﴿ نزل ﴾ يفيد التدريج ، والقرآن ، نزل كذلك فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث وعبر عن الوحى مرة بالتنزيل وأخرى بالإنزال للإشارة إلى أن منزلة الموحَى أعلى من الموحِى إليه ومعنى كونه بالحق أن كل ما جاء به من العقائد والأحكام والحكم والأخبار فهو حق لا شك فيه . ﴿ بين يديه ﴾ هى الكتب التى أنزلت على الأنبياء السابقين ، ﴿ التوراة ﴾ : المقصود بها الكتاب المنزل على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلاة ومعنى هذه الكلمة الشريعة ﴿ الإنجيل ﴾ : المراد بـه الكتاب المنـزل على نبى الله عيسى عـلى نبينا وعليـه الصلاة والسـلام وهذه الكلمـة معناهـا البشارة ﴿ الفرقان ﴾ هو الحق الذى يفرق الله به بين الهدى والضلال . ﴿ الانتقام ﴾ : مأخوذ من النقمة يقال : انتقم منه إذا عاقبه بجنايته ، والتصوير جعل الشىء على صورة لم يكن عليها ، والصورة هيئة يكون عليها الشىء بالتأليف . ﴿ الأرحام ﴾ واحدها رحم ، وهى مستودع الجنين من المرأة والمحكم من أحكم الشىء بمعنى وثّقه وأتقنه . والأم فى اللغة الأصل الذى يتكون منه الشىء والمتشابه : يطلق تارة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً ، وتارة أخرى على ما يشتبه من الأمور ويلتبس . والزيغ : الميـل عن الاستواء والاستقامة إلى أحد الجانبين والمراد به هنا ميلهم عن الحق إلى الأهواء الباطلة ، والتأويل : من أوَّل وهو الرجوع إلى الأصل ومنه الموضع الذى يرجع إليه ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ : هم المتفقهون فى الدين ، ﴿ من لدنك ﴾ : أى من عندك والمراد بالرحمة العناية الإلهية والتوفيق الذى لا يناله العبد بكسبه . وجمع الناس الحق حشرهم للحساب والجزاء . ﴿ لا ريب فيه ﴾ : أى إننا موقنون به لا نشك فى وقوعه لأنك أخبرت به وقولك الحق .

نزل صدر هذه السورة الكريمة فى وفد نجران وقد بلغ عدد الآيات التى نزلت بهذا الصدد ثـلاث وثمانون آية ، وقصة هذا الوفد كما رواها ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر ، قالـوا : إن هذه الآيـات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله ﷺ وكانوا نحو ستين راكباً وخاصموه فى عيسى ابن مريم وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ . قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى ! قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا لا قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم ، كيف شاء وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً . فأنزل الله : ﴿ الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر

تلك الآيات وهى الآية الثالثة والثمانون(١)

قال المفسرون ووجه الرد عليهم فيها - أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادىء ذى بدء ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً : أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحى وشرع الشرائع قبل وجوده كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء وإنما هو نبى مثلهم ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل وعيسى لم يكن واهباً للعقول ، ثم قال إنه لا يخفى عليه شىء ليرد على استدلالهم على إلوهية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى عليه شىء مطلقاً سواء أكان فى هذا العالم أم فى غيره من العوالم السماوية ، وعيسى لم يكن كذلك ثم أبان أن الإله هو الذى يصور فى الأرحام ليرد على ولادة عيسى من غير أب ؛ إذ الولادة من غير أب ليست دليلا على الإلوهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف يشاء وعيسى لم يصور أحداً فى رحم ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

وقد بدأ الله تعالى هذه السورة الكريمة بتلك الحروف الهجائية ﴿ **ألم** ﴾ التى جاءت إشارة إلى أن هذا الكتاب الذى نزل بتلك الحروف كتاب معجز : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾(٣) . وقد جاء قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ كالإجابة عن سؤ ال تقديره من أنزل هذا الكتاب المعجز ، وهذه كلمة حق ، فالله وحده هو الذى أنزله إذ غيره عاجز كل العجز أن يأتى بسورة من مثله ، قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾(٤) . وقال عز وجل: ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾(٥) . وجل جلال الله ، إذ يصف ذاته الأقدس بالحياة والقيومية ففى آية الكرسى قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ . وفى سورة آل عمران ، يقول الله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ وفى سورة طه : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾(٦) . وقد قال فريق من المفسرين : إن الحى القيوم هو اسم الله الأعظم ، الذى ما سئل به إلا أعطى وما دعى به إلا أجاب(٧) . وما أعظم أن يخبر الله عن ذاته بالوحدانية والحياة والقيومية ، وقد جاء فى الدعوات المأثورة : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٦٨ ، ٦٩ ط دار زهران للنشر .
(٢) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٣) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) سورة هود آية : ١٤ .
(٥) سورة النساء آية : ١٦٦ .
(٦) سورة طه آية : ١١١ .
(٧) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٩٣ ط وزارة الأوقاف .

كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . . فلفظ الجلالة (الله) هو العلم العظيم على الذات الأقدس والإخبار عنه بلا إله إلا هو إخبار بالوحدانية ، قال ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله » وجميع الأنبياء من لدن آدم إلى أشرف الخلق محمد ﷺ عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هوقول لا إله إلا الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾(١) . والحياة صفة قديمة وجودية قائمة بذاته تعالى تصحح الإتصاف بصفات الكمال ، فهو الحى العالم المريد السميع البصير صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، القيوم على عباده الذى به قامت السموات والأرض ﴿ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ﴾(٢). القائم على كل نفس بما كسبت ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾(٣). ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾(٤) . إن صفة الحياة واجبة لذاته سبحانه فهو جل جلاله أول بلا بداية وآخر بلا نهاية لا يعتريه نقص ، ولا يطرأ على حياته فناء .

﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً(٥)﴾ .

ولى فى فنـاء الخلق أكبـر عبـرة   لمن كـان فى بحـر الحقيقـة راق
شخـوص وأشكـال تمـر وتنقضى   فـتفنى جميـعـاً والمهيـمن بـاق

قوله تعالى:﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ أى هذا الإله الواحد الحى القيوم هو الذى نزل عليك الكتاب منجماً على حسب مقتضيات الحال وقد اقتضت حكمته العليا ومشيئته العظمى أن يتدرج فى التشريع لعباده لأنه عليم بذات الصدور وهذا الكتاب الذى نزله عليك قال عنه منزله ﴿وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾(٦). هوفى منزلة عظمى ودرجة عليا وقد نزل متلبساً بالحق ﴿ لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾(٧) . ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾(٨) . والحق ضد الباطل وهو اسم من أسماء الله تعالى . قال تعالى ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ وهذا الكتاب نزل مصدقاً ومؤيداً للكتب السابقة المنزلة على الأنبياء من قبل ؛ إذ صح كلها تنبع من مشكاة واحدة فهو الذى أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس قال تعالى:﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .
(٢) سورة الروم آية : ٢٥ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٤٢ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .
(٥) سورة الفرقان الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .
(٦) سورة الزخرف آية : ٤ .
(٧) سورة فصلت آية : ٤٢ .
(٨) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .

أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[١] . فالكتب السماوية من توراة وإنجيل وزبور وقرآن يصدق بعضها بعضا فسابقها يمهد للاحقها ولاحقها يكمل سابقها . قال عليه الصلاة والسلام : (مثلى ومثل النبيين قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت تلك اللبنة فأنا تلكم اللبنة وأنا خاتم النبيين)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ المراد به الحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الباهرة والبينات الواضحة التى يفرق بها العقلاء بين الحق والباطل والهدى من الضلال . ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[٣] . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾[٤] وقال جل شأنه:﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٦] وتقوى الله تجعل المؤمن ينظر بنور الله فيرزقه الله فرقاناً يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾[٧] ليس لأحد حجة على الله بعد بيان الطريق المستقيم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾[٨] ، وكفرهم بآيات الله حجود وإنكار وكبر وإستعلاء مع علمهم واستيقانهم أن الله حق ، قال سبحانه : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين »[٩] . وقال موسى لفرعون قال : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾[١٠]وما أعظم قوله جل شأنه:﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط﴾[١١] ، والعذاب الشديد هو المؤلم الموجع﴿ وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التى تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * فى عمد ممددة ﴾[١٢] ، والله عزيز غالب لا يغلبه أحد ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[١٣] ، وهو المنتقم الذى يجازى بالعقاب الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ومن على شاكلتهم من أهل السوء .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ دليل العليم المحيط والبصير فهو العليم البصير علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون وكلمة ﴿ **شىء** ﴾ نكرة جاءت فى سياق النفى فأفادت عموم العلم ودقته أى لا يخفى عليه أى شىء فى الأرض التى نعيش عليها

---

(١) سورة المائدة الآيات : ٤٦ - ٤٨ .
(٢) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٦ ص ١٢
(٣) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١٢ .
(٦) سورة يونس آية : ٥٧ .
(٧) سورة الانفال الآية : ٢٩
(٨) سورة آل عمران آية : ٤ .
(٩) سورة النمل آية : ١٢ .
(١٠) سورة الإسراء آية : ١٠٢ .
(١١) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(١٢) سورة الهمزة الآيات : ٥ ــ ٩ .
(١٣) سورة فاطر آية : ٤٤ .

ولا فى السماء التى تظلنا ، وهذا هو الكون الذى نحيا فيه ، فالأرض تحتنا والسماء فوقنا ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾[١] ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم - ﴾[٢] .

يامن يرى مد البعوض جناحه　　فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها　　والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها　　فى قاع بحر زاخر متجندل

إن هذا الذى أحاط بكل شىء علما وأحاط بكل شىء عدداً ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ أى يخلقكم فى الهيئة والصورة التى يشاؤ ها . . هو سبحانه . . وعالم الأرحام عالم عجيب ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٣] . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[٤] . وقال سبحانه : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[٥] » . وقال سبحانه: ﴿ ويعلم ما فى الأرحام[٤] ﴾ أى يعلم حقيقتها وأرزاقها وعددها وآجالها ويعلم ما فى الأرحام كلها من إنسان وحيوان فلا يقولن قائل إن العلم قد تقدم واستطاعت الأشعة أن تعرف ما فى الأرحام من ذكورة وأنوثة فنقول لمن قال : لقد غابت عنك أشياء كثيرة لأن تعبير النص القرآنى جاء بما ، لا ، بمن وما تطلق ويراد بها حقيقة الشىء فهل يستطيع العلم بأشعته أن يتوصل إلى حقيقة النطفة وهى نطفة إن كان المخلوق منها ذكراً أو أنثى ؟ وهل يستطيع أن يصل إلى حقيقة ما فى الأرحام من إنسان وحيوان وغير ذلك من المخلوقات والكائنات التى تتوالد وتتكاثر وهل يستطيع العلم بأشعته أن يعرف الأشياء المتعلقة بما فى الأرحام من كم وكيف وأجل ورزق وسعادة وشقاء وعمل إن هذه المسألة فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمها إلا الله .

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾[٧] .

هذا خلق الله : وعالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم وقدرة الله الذى أنزل القرآن

---

(١) سورة الرحمن آية : ٣٣
(٢) سورة المجادلة آية : ٧
(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣
(٤) سورة الحج آية : ٥
(٥) سورة الرعد الآيات : ٨ ، ٩
(٦) سورة لقمان آية : ٣٤
(٧) سورة لقمان آية : ٣٤

وعلى صدق الرسول سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن فإن الأطوار التى يمر بها الإنسان ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[١] .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ثم يذكرون أبعاده فيقولون إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات . . والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم : قراراً مكيناً ، حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾ .

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا ، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾[٢] . ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾[٣] ؟ .

﴿ مم خلق ﴾ : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم ، نصف ملليمتر فى الثانية الواحدة ويتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان .

فكيف كان عالمنا فى عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر . وهوفى الأرحام - خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر - كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق ؟ .

ذلك لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تتقلص عضلاته - حيث أصبح الإنسان ضيفاً ثقيلاً عليه - فتقلصت العضلات فعبر الإنسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول: ﴿ من أى شىء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره ﴾[٤] فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ : يقول الله عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٥] . وبنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ ، تفيد نفى العلم بالكلية إذ يقول علماء اللغة إن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله

---

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

(٢) سورة الزمر آية : ٦

(٣) سورة الطارق آية : ٥

(٤) سورة عبس الآيات : ١٨ : ٢٠ .

(٥) سورة النحل آية : ٧٨

ولنقابل هذا بالشكر والشكر لله : أن نسخر نعم الله فى طاعته وألا نستعملها فى معصيته :

قال موسى عليه السلام لربه : « يا رب : كيف أشكرك » قال له يا موسى : « تذكرنى ولا تنسانى . إنك إن ذكرتنى : شكرتنى ، وإن نسيتنى كفرتنى » وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز فى يديه وهو يردد بلسانه قائلاً : « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه » فقال له الرجل : فمن أى شىء عافاك ؟ قال له : « وهب لى قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً » .

ثم أنشد يقول :

حمدت الله ربى إذ هدانى إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ويعرفه فؤادى باللطيف

قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أى إن الذى صوركم فى الأرحام واحد لا شريك له ، عزيز لا يغلب،حكيم لا يعبث ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

يا ابن آدم

أنت الذى ولدتك أمك باكياً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً
تذكر جميلى مذ خلقتك نطفة ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشا
وسلم إلى الأمر واعلم بأننى أدبر أحكامى وأفعل ما أشا

لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

***

انظر إلى الشمس التى جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

***

انـظـر إلـى المـرء وقـل ... مـن شـق فـيـه بـصـره
مـن ذا الـذى جـهـزه ... بـقـوة مفـتـكـرة
ذاك هـو الله الـذى ... أنـعـمـه منـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة ... وقـدرة مـقـتـدرة
انـظر إلى الـلـيـل فـمـن ... أوجـد فـيـه قـمـره
وزانـه بـأنـجـم ... كـالـدرر المـنـتـشـرة
ذاك هـو الله الـذى ... أنـعـمـه منـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة ... وقـدرة مـقـتـدرة

قيل لأحد العارفين بالله ما الدليل على وجود الله قال : ومتى غاب سبحانه حتى تسألونى عن وجوده ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وأنكره الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله وقيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ فقال رضى الله عنه ومتى لم يكن : هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه،الباطن فلا شىء دونه ، وهو بكل شىء عليم .

حبيبى لا يـعـادلـه حبيب ... ومـا لـسواه فى قلبى نـصيب
حبيب جـل عن شخص وعينى ... ولـكـن عـن فـؤادى لا يـغـيـب

قيل للامام على : هل رأيت ربك ؟ قال وكيف أعبد ما لا أرى . فقالوا فكيف رأيته ؟ قال إن كانت الأعين لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قـلوب الـعـارفـين لهـا عـيـون ... تـرى مـا لا يـرى لـلـنـاظـرين
وأجـنـحـة تـطير بـغـير ريش ... إلى مـلـكـوت رب الـعـالمـين

إن آيات الملكوت كلها ناطقة بوحدانية الخالق .

تـأمـل فى نبـات الأرض وانـظر ... إلى آثـار مـا صـنـع المـلـيـك
عـيـون من لجـين شـاخـصـات ... وفى أبـصـارهـا الـذهـب السبيـك
عـلى قضب الـزبـرجـد شـاهـدات ... بـأن الله لـيـس لـه شـريـك

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمَّا يشركون * أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلاً ما تذكرون * أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أ إله مع الله تعالى الله عما يشركون * أمّن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾[1] .

(١) سورة النحل الآيات/٥٩ - ٦٤ النمل .

تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك أنت الغنى ونحن الفقراء إليك سبحانك أنت القائل : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

المفردات : ﴿ محكمات ﴾ : ظاهرات الدلالة لا خلاف فى معناها .

﴿ متشابهات ﴾ يقال اشتبه الأمر عليه أى التبس ، فالمتشابهات التى لم يظهر معناها وتتضح ، بل خلف ظاهر اللفظ المعنى المراد ، وقيل ما استأثر الله بعلمه . ﴿ زيغ ﴾ ميل عن الحق . ﴿ تأويله إلا الله ﴾ معرفة حقيقيه وبيان ما يؤول إليه فى الواقع ﴿ الراسخون ﴾ الثابتون فى العلم المتأكدون منه

التفسير : قوله تعالى ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب﴾ يفيد أن الذى أنزل الكتاب هو الله وحده ، وذلك فيه رد على الذين قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾[1] . وقالوا : إنه ﴿ سحر مفترى ﴾[2] وقالوا : ﴿ أساطير الأولين ﴾[3] فإذا كان الله وحده هو الذى أنزله ، فقد تنزه الكتاب الكريم عن البشرية والسحر والأساطير ، فهو كما قال منزله جل شأنه : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾[4] قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ هذا تقسيم لآيات القرآن إلى : محكم ومتشابه .

وفى القرآن الكريم آيات تفيد أن آيات القرآن محكمة كلها ، كما فى قوله جل شأنه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[5] كما أن فى القرآن الكريم ما يفيد أن القرآن متشابه كله ، وفى هذه الآية التى بين أيدينا ما يفيد أن بعض آياته محكم وبعضها متشابه ؛ فكيف التوفيق بين هذه النصوص ؟ .

إذا قلت : إن آيات الكتاب محكمة كلها فأنت صادق ؛ لأن الإحكام معناه أنها جاءت فى نسق رتيب ونظام بديع متقن ، وإذا قلت : إن آيات القرآن متشابهة كلها كما فى قوله جل شأنه : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ﴾[6] فأنت صادق ؛ لأن التشابه هنا معناه : أن آياته يشبه بعضها بعضاً فى الصدق والسلامة من العيوب والخلل والاختلاف ، وأن القرآن كله من عند الله ، نقل إلينا بطريق التواتر نتعبد بتلاوته ، ونتحدى جميع العالم أن يأتوا بسورة مثله أما قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ فإن المراد «بالمحكمات» الآيات الظاهرة الدلالة لفظاً ومعنى ، والمتشابهات هى الآيات التى يخفى على كثير من الناس ما تدل عليه ، فلها لفظ ولها معنى يدركه ويعرف حقيقته الله ، كما أن تفسيره يعرفه الراسخون والثابتون فى العلم ، وذلك كالآيات التى يوهم ظاهرها المشابهة فى قوله جل شأنه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[7] وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[8] وقوله : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾[9] وقوله : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾[10] . فعلماء السلف ومنهم الإمام مالك بن أنس يقولون : «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» فإنه تعالى كان ولا

(١) جزء من الآية/١٠٣ من سورة النحل .
(٢) من الآية/٣٦ من سورة القصص .
(٣) جزء من آيات كثيرة منها الآية/٢٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية/١٠٥ من سورة الإسراء .
(٥) من الآية/١ ـ من سورة هود .
(٦) من الآية/٢٣ من سورة الزمر .
(٧) الآية/٥ من سورة طه .
(٨) الآية/٢٧ من سورة الرحمن .
(٩) من الآية/١٠ من سورة الفتح .
(١٠) من الآية/٣٩ من سورة طه .

مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان وهذا فى قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾وهكذا يقال فى الآيات الباقيات، يقولون : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب ، وقل ذلك : فى كل الآيات المتشابهات ، إذ أنهم يردون هذه الآيات إلى الآيات المحكمات ، ومن هذه الآيات المحكمات قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾[٢] وقوله جل شأنه : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾[٣] .

ويرى الخلف تأويل هذه الآيات وتفسيرها تفسيرا يليق بذات الله : فيفسرون الاستواء على العرش بمعنى الهيمنة الكاملة والعلو والرفعة ، ويفسرون الوجه بمعنى الذات ، واليد بمعنى القدرة ، والعين بمعنى العناية والرعاية ، ويفسرون الحديث الشريف « إن قلوب بنى آدم جميعا بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء »[٤] يفسرون الإصبعين بالإرادة والقدرة .

والفرق بين السلف والخلف أن السلف يثبتون الاستواء والوجه والعين واليد والإصبعين لكن بلا كيف ولا تمثيل ، إنما بدون تشبيه أو تجسيد ، وهذا هو المعنى الذى يليق بذات الله ؛ فلا العرش يحمله ولا الكرسى يسنده ، بل العرش وحملته والكرسى وعظمته : الكل محمول بجلال قدرته ، مقهور بعظيم إرادته .

أما الخلف فإنهم يؤولون هذه الآيات إلى المعانى التى تليق بالذات الأقدس ، ومن ثم فقد قالوا : إن قول السلف أسلم ، وقول الخلف أحكم ، والكل يهدف إلى التنزيه والتعظيم ، ونفى التجسيد والتشبيه ، والكل هدفه سليم وبرىء من الزيغ .

أما قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ هؤلاء هم أصحاب القلوب المريضة التى تميل بالهوى ، ويميل بها الهوى فتتنكب الصراط السوى ، وتجافى سبيل الحق ، إنهم لا يردون المتشابه إلى المحكم ؛ إنما يتبعون المتشابه بعيداً عن المحكم فيشبهون ويجسدون ، يبتغون بذلك الفتنة . أى : فتنة الناس فى دينهم ، وإشعال نار الكفر ، أو يشبهون الله بالحوادث ، هو سبحانه مخالف لخلقه ، تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، موصوف بلا نهاية ، واحد لا من علة ، وموجود لا من قلة ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزىء ، ولا متكيف ولا متلون ، لا يسأل عنه بما ، إذ لا يعرف حقيقة الله إلا الله ، ولا يسأل عنه بمتى ؛ لأنه خالق الزمان ، فلا يحكم عليه بالزمان ، وما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك والقول الحق فى ذلك . ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[٥] .

إن الذين فى قلوبهم زيغ يتبعون المتشابه من الآيات ، بعيداً عن المحكمات التى هى أم الكتاب

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٢) الآية ١١١ من سورة طه .
(٣) سورة الإخلاص .
(٤) متفق عليه .
(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .

وأصله ، ابتغاء إشعال الفتن وابتغاء تأويله ، أى البعد به عن مراد الله من التنزيه والتقديس والتمجيد والتعظيم .

ومن الذين فى قلوبهم زيغ ، والذين اتبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، هؤلاء الذين انحرفوا بشريعة المسيح فألهوه وعبدوه .

فقد كانوا يتبعون المتشابه من آيات القرآن ، فيميزون بها المسيح عن بقية البشر مثل قوله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾[1] فرد القرآن عليهم بأن القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ ، بعض آياته محكمات واضحات ظاهرات لا خلاف بين ظاهر اللفظ والمعنى المراد منها كقوله تعالى مثلاً : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[2] وكقوله فى شأن عيسى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾[3] وكآيات الأحكام مثل : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾[4] وهكذا المحكم كل ما لا يحتمل من التأويل المعتد به إلا وجهاً واحداً .

وهن ــ أى المحكمات : ﴿ **أم الكتاب** ﴾ وعماده ومعظمه وأصله الذى دعى الناس إليه ، ويمكنهم فهمه ، وعنها يتفرع غيرها ويحمل عليها ، وهى أكثر ما فى القرآن فإن اشتبه علينا من الآيات آية ، ردت إلى المحكم وحملت عليه ، مثلاً قوله تعالى: ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ترد وتحمل على قوله: ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾[6] وقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾[7] بمعنى أننا نؤمن بأن الكل من عند الله وأنه لا ينافى الأصل المحكم .

أما الآيات المتشابهات كقوله تعالى فى عيسى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ من سورة النساء ، وكقوله ﴿ متوفيك ورافعك إلى ﴾[8] فى شأن عيسى ، وكقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ . ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ . فهذه آيات متشابهات تحمل عدة معان ، ويخالف ظاهر اللفظ فيها المعنى المراد ، فهى مما استأثر الله بعلمه ، فليس لكم أيها النصارى أن تحتجوا بأمثال هذه الآيات ، فإنها من المتشابه الذى يحتمل عدة معان ، والله أعلم بها ، وكيف لا تدينون بقوله تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾[9] وتتمسكون بآيات استأثر الله بعلمها هو ﴿ **فأما الذين فى قلوبهم زيغ** ﴾ وميل عن الحق إلى الباطل ، فيتبعون المتشابه من القرآن وغيره ، ويتركون المحكم ابتغاء فتنة الناس وإضلالهم ، ولكى يتأولوا تأويلاً غير سائغ فى العقل ، ولكنه موافق لأوهامهم وضلالهم .

قوله تعالى: ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ المراد بالتأويل هنا ما يؤول إليه الشىء ويرجع ، مأخوذ من المآل وللتأويل هنا معنيان : فإن أريد به معرفة ما يؤول إليه من حقائق ، كحقيقة ما يجرى فى الدار الآخرة من

---

(١) من الآية/١٧١ من سورة النساء .
(٢) من الآية/٣٣ من سورة الأسراء .
(٣) الآية/٥٩ من سورة الزخرف .
(٤) من الآية/١٥١ من سورة الأنعام .
(٥) من الآية/١٧١ من سورة النساء .
(٦) من الآية/٥٩ من سورة الزخرف .
(٧) من الآية/٥٩ من سورة آل عمران .
(٨) من الآية/٥٥ من سورة آل عمران .
(٩) من الآية/١٧٢ من سورة النساء .

حساب وميزان وكتاب وصراط ؛ فقف على لفظ الجلالة ، وقل : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ إذ هذه من الأمور التى استأثر الله تعالى بعلم حقيقتها ، وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[١] فقوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾ أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا ما يؤول إليه حقيقة هذا اليوم ، ولا يعلم حقيقته إلا الله وحده .

وإن كان التأويل بمعنى التفسير فعليك أن تعطف قوله تعالى:﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ على لفظ الجلالة فتقرأ:﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم** ﴾ إذ أن التأويل هنا يأتى بمعنى التفسير كما فى قوله تعالى : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾[٢] أى تفسيرها ، وقد كان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس يقول : متحدثا بنعمة الله عليه ، إنى أعلم تأويله فأنا من الراسخين فى العلم ، وذلك ببركة دعوة النبى ﷺ له : (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) وتكون جملة ﴿ **يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ جملة حالية أى فى محل نصب على الحال .

وإنما خص الراسخين فى العلم حتى لا ينفتح الباب أمام أصحاب الأهواء والجهلة .

أما إذا وقفت على لفظ الجلالة ، فإن جملة ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ ومعنى ﴿ **آمنا** ﴾ أى صدقنا وأيقنا أن آيات الكتاب سواء فى ذلك محكمة ومتشابهة ، كل من عند ربنا .

ولما خص الله تعالى الراسخين بهذا الفضل قال : ﴿ **وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ أى وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا ذوو البصائر المستنيرة والعقول الراجحة ، التى امتازت بالتدبر والتفكر فى جميع الآيات المحكمة التى هى الأصول ، حتى إذا عرض لهم المتشابه بعد ذلك سهل عليهم أن يتذكروها ، ويردّوا المتشابه إليها ، ويقولوا فى المتشابه الذى هو نبأ عالم الغيب إن قياس الغائب على الشاهد قياس مع الفارق ، لا ينبغى للعقلاء أن يعتبروه .

ثم ذكر ما يدعون به ليهبهم الثبات على فهم المتشابه فقال : ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾ أى أن أولئك الراسخين فى العلم مع اعترافهم وإيمانهم بالمتشابه ؛ يطلبون إلى الله أن يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة ، فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فيخافون أن يقعوا فى الخطأ والخطأ قرين الخطر .

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يدعو «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : « وليس من قلب إلا وهو بين

(١) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية ٦ من سورة يوسف .

إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه »[١] ﴿ **ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ أى ربنا إنك تجمع الناس للجزاء فى يوم لا شك فيه ، وإنا موقنون به لأنك أخبرت به ، وقولك الحق ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه وأنت لا تخلف وعدك .

وقد جاءوا بهذا الدعاء بعد الإيمان بالمتشابه ؛ ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يسلبهم الرحمة فى ذلك اليوم ، وهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقى منه .

ولسائل أن يقول : لِمَ كان فى القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكماً يتساوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هاديا ، والمتشابه يحول دون الهداية ، لوقوع اللبس فى فهمه وفتح باب الفتنة فى تأويله لأهل التأويل . أجاب العلماء عن هذا بأجوبه كثيرة منها :

١ - أن فى إنزال المتشابه امتحانا لقلوبنا فى التصديق به ، إذ لو كان ما جاء فى الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه لأحد لما كان فى الإيمان به شىء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله .

٢ - إن فى وجوده فى القرآن حافزا لعقول المؤمنين إلى النظر فيه ، كيلا تضعف وتموت ، إذ السهل الجلى لا عمل للعقل فيه ، وإذا لم يجد العقل مجالا للبحث مات ، والدين أعز شىء على الإنسان ؛ فإذا ضعف عقله فى فهمه ضعف فى كل شىء ، ومن ثم قال : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ ولم يقل والراسخون فى الدين ، لأن العلم أعم وأشمل . فمن رحمته أن جعل فى الدين مجالاً لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه ، إذ بحثه يستلزم النظر فى الأدلة الكونية والبراهين العقلية ووجوه الدلالة ، ليصل إلى فهمه ويهتدى إلى تأويله .

٣ - إن الأنبياء بعثوا إلى الناس كافة ، وفيهم العالم والجاهل والذكى والبليد ، وكان من المعانى ، الحكم الدقيقة التى لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها؛ فجعل فهم هذا من حظ الخاصة ، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله ، والوقوف عند فهم المحكم ، ليكون لكل نصيبه على قدر استعداده ، فإطلاق كلمة الله﴿ وروح من الله﴾ على عيسى ، يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة ، ومن ثم فتن النصارى بمثل هذا التعبير ، إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه ، واستحالة أن يكون لله أم أوولد بمثل ما دل عليه قوله:﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾[٢] .

لا عبرة إلا بالحق

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ

(١) رواه مسلم .
(٢) من الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ **تغنى** ﴾ : أى تنفع . ﴿ **وقود** ﴾ : بفتح الواو أى حطب ونحوه و﴿ **الدأب** ﴾ : العادة . من دأب على العمل إذا جد فيه وتعب ثم غلب فى العادة . و﴿ **المهاد** ﴾ : الفراش . يقال مهد الرجل المهاد إذا بسطه . و﴿ **الآية** ﴾ : العلامة على صدق ما يقول الرسول .

لما ذكر الله تعالى حال الراسخين الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وأعلنوها صريحة مدوية لا لبس فيها ولا غموض ، وقالوا : ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ ذكر بعد ذلك حال الكافرين ، ومنهم الذين فى قلوبهم زيغ فاتبعوا ما تشابه من الآيات ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وكان قصدهم مريضاً وهدفهم شراً مستطيراً ، ومن ثم : فإن لابن عباس رضى الله عنه كلمة فى محكم الكتاب ومتشابهه يقول فيها : التفسير على أربعة أنحاء : تفسير لا يعذر أحد فى فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

وعن مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال ، أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به** ﴾ وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه) .

وعن رسول الله ﷺ : (إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به) .

قوله تعالى:﴿ **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ إخبار منه سبحانه بأن من كفر بالله وكذب بآياته ورسله لن ينفعه عند الله شىء ولن يغنيه ماله وولده فى دفع العذاب عنه ، فإنه كما قال سبحانه:﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾[1] وكما قال جل شأنه : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[2] وقوله : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[3] وقد جاء الرد مفحماً لهم عندما قالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾[4] قال لهم سبحانه : ﴿ وما

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .
(٢) من الآية ٣١ من سورة الحج .
(٣) الآية ٥٥ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٣٥ من سورة سبأ .

أموالكم ولاأولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾[١] فالمال والولد لا يغنيان شيئاً ، وما أجمل ما دعا به ابراهيم الخليل ربه : ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[٢] وقد ردع القرآن هذا المفترى ، الذى ورد ذكره فى قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾[٣] ، فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظا فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه .

قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ أى حطبها كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[٤] .

عن أم الفضل : أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : (هل بلغت) يقولها ثلاثاً ــ فقام عمر بن الخطاب ــ وكان أواها ــ فقال:اللهم نعم ، وحرصت وجاهدت ونصحت فاصبر !! فقال النبى ﷺ : (ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرأون القرآن فيقرؤ ونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا ؟؟ فما فى أولئك من خير) قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : (أولئك منكم هم وقود النار)[٥] .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أى صنيع هؤلاء الكفار وحالهم وشأنهم ؛ مثل ذلك كله كصنيع آل فرعون وحالهم وشأنهم ، فالكل مكذب بآيات الله مستحق لعقابه ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾[٦] ، فكما كان مصير آل فرعون ، فسوف يكون مصير هؤلاء المكذبين على كر العصور والدهور ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾[٧] ، ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾[٨] ، ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾[٩] ، ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[١٠] . ﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾[١١] نعم إن الذنوب تهلك الأمم ، وتلبسها لباس الخوف والجوع ، قف كثيراً عند قوله جل شأنه : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم

---

(١) الآية/٣٧ من سورة سبأ .
(٢) الآيات :/٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .
(٣) الآيات :/٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من سورة مريم .
(٤) الآية :/٩٨ من سورة الأنبياء .
(٥) رواه مسلم .
(٦) الآيات :/٤١ - ٤٦ من سورة القمر .
(٧) من الآية : / ٦٢ من سورة الأحزاب .
(٨) من الآية :/٤٣ من سورة فاطر .
(٩) من الآية :/٤٣ من سورة فاطر .
(١٠) الآية :/١٣٧ من سورة آل عمران .
(١١) الآية :/٢١ من سورة غافر .
(١٢) الآية :/٦ من سورة الأنعام .

وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾(١٢) ، وقال سبحانه : ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله ؛ إنه قوى شديد العقاب ﴾(١) وشدة عقابه هى العدالة التى لا يشوبها ظلم ، فإنه تعالى يمهل ولا يهمل ، اقرأ قوله جل شأنه : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٢) وقوله : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾(٣) وقوله : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾(٤) .

إن الظلم لا يدوم ! وإذا دام دمر ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق باقية حتى قيام الساعة .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قال سبحانه فى الحديث القدسى الجليل : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)(٥) .

قوله تعالى : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد** ﴾ جاء فى سبب نزول تلك الآية الكريمة ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إن يهود المدينة لما شاهدوا غلب رسول الله ﷺ للمشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبى الأمى الذى بشرنا به موسى وفى التوراة نعته وهمّوا باتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شكوا ، وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت .

وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش،فقالوا له : لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس فنزلت(٦) .

فى هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد وويل وثبور . جاء هذا التهديد للكافرين ، ومنهم اليهود الذين غرّتهم أموالهم وأولادهم ، فحسبوا أن الماديات مقاييس للنصر ، ونسوا أن فى السماء مملكة ، وأن للكون إلها ، من خصائصه أنه يقول للشىء كن فيكون ، إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ولقد جاء هذا الإنذار بأنهم سيغلبون فى الدنيا بأيدى الجماعة المؤمنة والفئة الموحدة : إنه إنذار لهم بأنهم سيُغلبون فى الدنيا وسيحشرون فى الآخرة إلى جهنم ، وبئس المهاد جهنم ، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾(٧) .

(١) الآية :/٢٢ من سورة غافر .
(٢) الآية :/١٠٢ من سورة هود .
(٣) الآية :/١١٧ من سورة هود .
(٤) من الآية :/٥٩ من سورة القصص .
(٥) من حديث رواه البخارى ومسلم .
(٦) وتتمة كلام الرسول ﷺ : «فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم» من تفسير القرطبى عن ابن اسحاق ج ٤ ص ٢٤ .
(٧) الآية :/٤١ من سورة الأعراف .

ولما كان القوم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات الملموسة فقد أقام لهم القرآن الكريم دليلا ماديا قاطعا على صدق ما قررته تلك الآية من حقائق ، وأثبتته من وعيد بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة : قال تعالى : ﴿ **قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة** ﴾ هاتان الفئتان فئة المؤمنين وفئة الكافرين ، التقتا يوم بدر ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾[١] . ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله . والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾[٢] .

وموضع العبرة أن المسلمين قبل نزول المعركة كانوا يرون المشركين قلة ! هكذا أراد الله حتى لا يشتد عليهم الموقف فينتابهم شىء من الضعف ، وكان المشركون كذلك قبل المعركة يرون المسلمين قلة ! أراد الله ذلك حتى يطمعوا فى قتالهم ، قال تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾[٣] . وبعد وقوع المعركة والتحام الصفوف ، كان المشركون يرون المسلمين مثليهم رأى العين ، أى رؤ ية لا خداع فيها ، وذلك ليقذف الله الرعب فى قلوب أعدائه ، وتم النصر لأولياء الله ، كما أحاطت الهزيمة بأعداء الله .

فليست العبرة بالقوى المادية ؛ إذ النصر الحقيقى لا يملكه إلا من بيده مقاليد السماوات والأرض ، فإليه يرجع الأمر كله : قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[٤] . . صدقت ربنا وقولك دائما صدق : ﴿ **فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾ .

نعم إنهم أصحاب الأفئدة المستنيرة والقلوب الباصرة ؛ التى تدرك حكمة الله فى الأشياء ، فتسلك ببصرها مدارج الأنوار ، وتقف على حقائق الأسرار ، وتحيا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

متاع الحياة الدنيا

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

المفردات :

﴿ **الشهوات** ﴾ : واحدها شهوة ، وهى رغبة النفس فى الحصول ، والمراد بها المشتهيات كما يقال :

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة الحج .
(٢) الآية : ٧٦ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٤٤ من سورة الأنفال .
(٤) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الأنفال .

هذا الطعام شهوة فلان أى ما يشتهيه ، ﴿ والأنعام ﴾ واحدها نعم وهى الإبل والبقر والغنم ولا تطلق النعم إلا على الإبل خاصة . و ﴿ المسوّمة ﴾ : هى التى ترعى فى الأودية والقيعان و ﴿ الحرث ﴾ الزرع والنبات .

هذه الآية الكريمة اشتملت على ستة أمور سماها الله تبارك وتعالى الشهوات ، والشهوات كل ما تشتهيه النفس ، فإن سار فى طريق الله هذا الأمر وسلك سبيل الخير كان حبها خيرا ، أما إذا انحرف المسار عن طريق الجادة فقد هوى صاحبها ، لأن غضب الله قد حل عليه ، قال تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[1] فحب النساء إن كان فى حدود ما شرع الله فى الحياة الزوجية فهو نعمة من نعم الله ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[2] أما إن كان ذلك فى طريق الغواية ، كالمخادنة والمسافحة ، فهو وقوع فى الرذيلة ، وهبوط إلى مستنقع آسن ، وما قيل فى حب النساء يقال فيما بعدها من البنين والمال ، فقد قال ﷺ : (نعم المال الصالح للعبد الصالح) أما إذا أدى المال إلى الشح والبخل والجبروت فبشر صاحبه بعذاب أليم قال تعالى: ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾[3] . وقال جل شأنه : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون ﴾[4] وحب البنين الذى جاء بين حب النساء وحب المال : إن كان لتقواهم وصلاحهم وجهادهم فى سبيل الله وما يقدمونه من نفع للإسلام فذلك خير عظيم ، أما إن كان هذا الحب مجبنة مبخلة ، أى داعيه إلى الجبن والبخل ، فذلك شر مستطير ، وقل فى ذلك ما شئت من وجوه اللهو والبعد عن الله ، بسبب كثرة الأولاد ، قال تعالى على لسان الكافرين : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾[5] . فإن كانت الأولاد ستغرى الوالد وتطمعه فى الاعتداء على الآخرين ، فقد صار الأمر منذراً بالخطر ، وما قيل فى حب النساء والبنين والمال ، يقال فى الخيل والأنعام والحرث ، ولكن الحقيقة التى يجب أن ينتبه الجميع لها : أن متاع الدنيا قليل ، وكما قال مولانا جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[6] ، وكما قال سبحانه : ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾[7] ، أى الحياة الكاملة الباقية الخالدة ، أما المرجع الحسن والمآل السعيد والمسكن الطيب فهو عند الله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[8] .

فهل تبيع الخلد ياغافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

(١) من الآية : ٨١ من سورة طه .
(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٣) الآية : ١٨٠ من سورة آل عمران .
(٤) من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .
(٥) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .
(٦) من الآيتين : ٧٧ ، ٧٨ من سورة النساء .
(٧) من الآية : ٦٤ من سورة العنكبوت .
(٨) من الآية : ٩٦ من سورة النحل .

الخير عند الله للمتقين

* قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

المفردات : النبأ والأنباء:لم يردا فى القرآن إلا لما له شأن عظيم:**و التقوى** : هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . **و الرضوان** : الرضا **والمطهرة** : الخالية من الشوائب الجسمية والنفسية . **والصبر** : حبس النفس عند كل مكروه يشق عليها احتماله . **و الصدق** يكون فى القول والعمل والوصف . يقال فلان صادق فى قوله وصادق فى عمله وصادق فى حبه و ﴿**القانتين**﴾ : أى المداومين على الطاعة والعبادة و ﴿ **المستغفرين بالأسحار** ﴾ : أى المصلين وقت السحور .

بعدما أخبر الله سبحانه بقوله ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾ ذكر بعد ذلك تفصيلا لحسن المآب ، فخاطب نبيه ومصطفاه ﷺ بقوله ﴿ **قل** ﴾ أى أخبرهم يامحمد بما هو خير مما تقدم من حب الشهوات الذى ذكر مفصلاً ، من النساء والبنين إلى آخره ، إنه الخير الكبير الذى أعده الله للمتقين من النعيم الحسى والمعنوى ، فقد تمثل النعيم الحسى فى جنات تجرى من تحتها الأنهار والأنهار فى الجنة كما بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾[١] ويكمل نعيم الجنة بالخلود فيها،فهذا هو معنى الأمن ، إذ لا فزع ولا قلق ولا طرد ، كذلك يتمثل النعيم المادى فى الأزواج المطهرة ، والطهارة هنا بمعناها الواسع : حسية من الفضلات والإفرازات ومعنوية بطهارة القلوب من الحقد والحسد والبغضاء ، قال سبحانه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[٢] ثم يأتى بعد ذلك النعيم المعنوىَ عندما يقول الله تعالى لأهل الجنة : أرضيتم فيقولون وكيف لا نرضى ياربنا وقد آتيتنا ما لم تؤت أحداً من خلقك ، فيقول أنا أعطيكم أكثر من هذا ، أحل عليكم رضوانى الذى لا أسخط بعده أبداً ، وهذا مصداق قوله جل شأنه : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[٣] .

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يامالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىَّ من الدنيا وما فيها

---

(١) من سورة الآية : ١٥ من سور محمد - ﷺ .
(٢) الآية : ١٧ من سورة السجدة .

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ دليل على أنه سبحانه حكيم يعطى الخير لأهله ، فمن رضى فله الرضا ، قد تنزه سبحانه عن العبث ، وقد منح هؤلاء العباد النعيم فى أكرم صورة ، فهم الذين قالوا : ﴿ ربنا آمنا ﴾ وهم الذين دعوه أن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يقيهم عذاب النار ، إنهم الذين وصفهم سبحانه بالصبر والصدق والطاعة وإنفاق المال فى سبيل الخير والاستغفار وقت السحر .

كان النبى ﷺ يأمر أصحابه بالتوبة والاستغفار فيقول : (أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله واستغفره فى اليوم مائة مرة)[1] .

ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وقد ورد فى الحديث ما يبين فضل الاستغفار فى الأسحار ،وثبت فى الصحيحين عن جماعة من الصحابة : أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : « . . من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره فانتهى وتره إلى السحر » .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يصلى من الليل ثم يقول : « يانافع[2] هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ! أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح » ، وعن ابراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلاً فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه[3] . . وعن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة .

الوحدانية الخالصة

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

---

(١) متفق عليه .

(٢) نافع هو غلام عبد الله بن عمر وأحد أفراد سلسلة الذهب فى أسانيد الحديث المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٣) خبر نافع وابن حاطب رواهما القرطبى فى التفسيرج ٤ ص ٣٩ ، ٤٠ .

المفردات: يقال: ﴿ **شهد** ﴾ الشيء وشاهده إذا حضره كما قال ﴿ وما شهدنا مهلك أهله ﴾[١] وقال: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾[٢]. والشهادة بالشيء الإخبار به عن علم، إما بالمشاهدة الحسية، وإما بالمشاهدة المعنوية وهى الحجة والبرهان، و﴿ **أولوا العلم** ﴾ هم أهل البرهان القادرون على الإقناع، وهم يوجدون فى هذه الأمة وفى جميع الأمم السالفة ﴿ **بالقسط** ﴾ أى بالعدل فى الدين والشريعة، وفى الكون والطبيعة و﴿ **الدين** ﴾ له فى اللغة عدة معان: منها الجزاء، والطاعة والخضوع، ومجموعة التكاليف التى بها يدين العباد لله، وما يكلف به العباد يسمى شرعاً باعتبار وضعه وبيانه للناس، ودينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع، وملة باعتبار أنها كتبت و﴿ **الإسلام** ﴾ يأتى بمعنى الخضوع والاستسلام، وبمعنى الأداء تقول أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، وبمعنى الدخول فى السلم أى الصلح، والسلامة، وتسمية الدين الحق إسلاما يناسب كل هذه المعانى.

و﴿ **حاجوك** ﴾: جادلوك و﴿ **أسلمت** ﴾: أى أخلصت و﴿ **الأميون** ﴾ مشركو العرب واحدهم أمى نسبوا إلى الأم لجهلهم كأنهم على الفطرة ﴿ **البلاغ** ﴾: أى التبليغ للناس.

روى الامام أحمد باسناده إلى الزبير بن العوام: قال: سمعت النبى ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ (وأنا على ذلك من الشاهدين يارب)[٣].

هذه أعظم شهادة فى الإسلام وإنما خص الملائكة وأولى العلم تشريفاً لهم وتكريماً، قال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)[٤] وكل المخلوقات من العرش إلى الفرش لو سألتها من خالقك لقالت بلسان الحال والمقال أنا مخلوقة للواحد الديان.

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنيَّة كالخيال
فكل الكائنات غداً ستفنى ويبقى وجه ربك ذى الجلال

وعجبت لمن أنكر الوحدانية، وهذا الكون باتساقه وانسجامه؛ ينطق بلسان اليقين: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[٥].

---

(١) من الآية: ٤٩/ من سورة النمل.
(٢) من الآية: ٨٥/ من سورة البقرة.
(٣) روى الإمام القرطبى عن الكلبى، قال: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال احدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان! . فلما دخلا على النبى ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: «سلانى». فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله. فأنزل الله تعالى نبيه ﷺ: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلاهو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾ فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ. أهـ ٤ ص ٤١.
(٤) متفق عليه.
(٥) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

قال غالب القطان : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش ؛ فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة ، فقام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية: ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعه ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ قالها مراراً قلت : لقد سمع فيها شيئاً ، فغدوت إليه فودعته ثم قلت يا أبا محمد إنى سمعتك تردد هذه الآية قال : أو ما بلغك ما فيها قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثنى قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة فأقمت سنة وكتب على بابه ذلك اليوم فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة.قال : حدثنى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدى عهد إلىّ وأنا أحق من وفى بالعهد ادخلوا عبدى الجنة)[1] .

وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التى بين الله فيها صفات المتقين من الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار ، لأن هؤلاء الذين اتصفوا بتلك السجايا الحميدة من أوائل الموحدين الشاهدين لله بأنه الواحد فى ذاته ، فلا قسيم له ، الواحد فى صفاته فلا شبيه له ، الواحد فى أفعاله فلا شريك له ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر ، تنزه عن الشريك ذاته ، فهو الذى له الأمر كله ، و﴿ له الحكم وإليه ترجعون ﴾[2] تقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلاغاية وموصوف بلا نهاية ، لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل ، هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾[3] : ﴿ له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ﴾[4] ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ حال لازمة وصفة ثابتة لله جل شأنه فهو المهيمن على هذا الكون بالعدل فكل فعله مبنى على الحكمة ، والقسط فى حق الله هو العدل المطلق ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[6] ثم قال سبحانه : ﴿ **لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ أى أن كلمة التوحيد هى العدل نفسه وأن الشرك هو الظلم عينه ، قال لقمان

---

(١) رواه القرطبى فى تفسيره ج ٤ ص ٤٢ وقال : غالب القطان وثقة احمد بن حنبل ابن معين وأبو حاتم ،ثم قال : حسبك أن خرج له البخارى ومسلم فى كتابيهما : روى من حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « من قرأ ﴿ شهد ار أنه لا إله هو وملائكة وألوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ عند منامه خلق ار له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة » وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما أو صنمان ، فلما نزلت هذه الآية أصبحت هذه الأصنام قد خرت ساجدة . . اهـ .

(٢) من الآيتين ٧٠ ، ٨٨ من سورة القصص .

(٣) من الآية : ٣ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٢ : من سورة الحديد .

(٥) الآية : ٦ من سورة الحديد .

(٦) الآية : ٩٠ من سورة النحل .

لابنه : ﴿ يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾[٢] .
﴿ العزيز ﴾ : هو القاهر الغالب ، الذى لا يقهر ولا يغلب ، الحكيم : أى المنزه عن العبث ، المبرأ من الظلم ، الحكم العدل المقسط .

قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد ، هو الإسلام ، قال تعالى حكاية عن نوح يقول لقومه : ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[٣] وقال حكاية عن إبراهيم ويعقوب : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[٥] وقال حكاية عن يوسف : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾[٦] ، وقال حكاية عن موسى وقومه : ﴿ وياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[٧] وقال حكاية عن سليمان وملكة سبأ: ﴿ أن لا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ﴾[٨] ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾[٩] وقال مخاطباً عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾[١٠] وقال عن النبيين : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا)[١١] وبشر أمة محمد ﷺ بأربع بشريات فى حجة الوداع : أولاها ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾[١٢] وثانيتها : (اليوم أكملت لكم دينكم ﴾[١٣] وثالثتها : (وأتممت عليكم نعمتى ﴾ ورابعها:﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وإذا كان الله قد أكمل دينه فدين الله ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لا تنقص أبدا ، وإذا كان قد رضى لنا الاسلام دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾ وقد حسم القرآن الموقف حسماً لا يقبل جدلاً حيث قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[١٤] اللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك ، وأن محمدا عبدك ونبيك ورسولك،رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات

---

(١) من الآية : ١٣ من سورة لقمان .
(٢) من الآية : ٢٥٤ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٧٣ من سورة يونس .
(٤) الآيتان : ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة
(٥) الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .
(٦) من الآية : ١٠١ من سورة يوسف .
(٧) من الآية : ٨٤ من سورة يونس .
(٨) الآية : ٣١ من سورة النمل .
(٩) من الآية : ٤٤ من سورة النمل .
(١٠)الآية : ١١١ من سورة المائدة .
(١١)من الآية : ٤٤ من سورة المائدة .
(١٢)من سورةالآية : ٣ من سورة المائدة .
(١٣)من الآية : ١٤ من سورة الجن .
(١٤)من الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .

والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ولك حاكمت ، فاغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ؛ لا إله إلا أنت »[1] « نامت العيون وأنت الحى القيوم لا تأخذك سنة ولا نوم أغلقت الملوك أبوابها وبابك لا يغلق أستحى أن أسألك وأنا أنا ، ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت ، إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية »[1] .

يـامن يجيب العبد قبـل سؤالـه ويجـود لـلعـاصـين بـالغـفـران
وإذا أتـاه الـطالبـون لـعـفـوه سـتر القبيح وجاد بـالإحسـان

ما بالكم ياقوم فى غفلة عن الله ، والله يقول فى كتابه : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم ﴾[2] ويقول : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون)[3] . ألم تقرأوا قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[4] . لما كانت الساعة متحققة الوقوع عبر عن وقوعها بالفعل الماضى (أتى ﴾ كأنها قد وقعت وعبر عنها بالاقتراب فقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[5] .

ياأخا الاسلام :

تـزود من التقوى فـإنـك لا تـدرى إذا جن ليـل هل تعيش إلى الفجـر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقـد نسجت أكفانـه وهو لا يـدرى
وكم من عـروس زينوهـا لـزوجهـا وقــد قبضت أرواحهم ليلة القــدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمـة القبر
وكم من صحيح مات من غـير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

قوله تعالى : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** ﴾ هذا إخبار من الله جل جلاله عن الدافع النفسى الذى دفع أهل الكتاب إلى الاختلاف على أنبيائهم والخروج على شرائعهم وشعائرهم ، فقد تقرر أن الدين عند الله الإسلام ، فما السر فى اختلاف هؤلاء ؟ ! إن السر هو البغى والحسد الذى وقع بين رؤ سائهم وملوكهم وأحبارهم ورهبانهم ، فقد بغى بعضهم على بعض ، طلباً للرئاسة ، ولما هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد فى نفوسهم ؛ تفرقوا شيعـاً وأحزاباً ، واختلفوا فى طبيعة المسيح : أهو الله أم هو ابن الله ؟ هل الإله شركة مساهمة : الأب والابن والروح القدس ؟ ! وانقسموا إلى يعقوبيين وملكانيين وشمعونيين ومارونيين : قال تعـالى : ﴿ إن الذين

(١) من أدعية الرسول ﷺ إذا قام الليل ذكرها النووى فى الأذكار والكاندهلوى فى حياة الصحابة .
(٢) الآيات الأولى من سورة الأنبياء .
(٣) الآيات من : ٩٧/ - ١٠٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية الأولى من سورة النحل .
(٥) الآية الأولى من سورة القمر .

فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون ﴾[١] ثم وجه حبيبه ومصطفاه إلى أن يعلنها فى سمع الزمان صريحة مدوية : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[٢] ﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[٣] . لقد بلغ من اختلافهم المبنى على الحسد والحقد أنهم كانوا يبشرون ببعثة النبى محمد ﷺ ؛ فلما جاء عربياً قرشياً ، قالوا كنا نطمع أن يكون منا من بنى إسرائيل ، فناصبوه العداء وتآمروا مع المشركين على حربه : قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ هذا حكم من الله على الذين جحدوا آياته وأنكروا آلاءه وكفروا بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة التى قامت فى الآفاق والأنفس ، وسواء أكانت الآيات هنا آيات تكوينية أم تشريعية[٥] ، فإنها دالة على وحدانية الله وقدرته ، فمن كفر بها فسوف يحاسب حساباً عسيراً ، وسوف يدعو ثبورا[٦] ويصلى سعيراً ، فإن الله سريع الحساب ، وإن الله حكم حكماً عادلاً إذ يقول:(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[٧] .

هؤلاء الذين اختلفوا على شرائع أنبيائهم من أهل الكتاب ، وفرقوا دينهم وكانوا شيعاً ؛ إن جاءوك يجادلونك فماذا أنت قائل لهم ؟ لقن الله تعالى نبيه ماذا يقول لهم:﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ أى إن جادلوك فلا تجادلهم فإن جدالهم مبنى على العناد والكبر ، ولكن قل لهم : ﴿ أسلمت وجهى لله ﴾ أى أخلصت إسلامى وانقيادى لله وحده ، ثم ماذا ؟ قال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ﴾ أى وجه هذا الأمر الذى جاء فى صيغة الاستفهام ﴿ أأسلمتم ﴾ أى قل لهؤلاء الذين اختلفوا على الأنبياء بغياً وحسداً ، وقل للأميين من مشركى العرب : قل لهم أسلموا ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ إلى صراط الله المستقيم ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٨] . ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع

---

(١) الآية : ١٥٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٣) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات : ٨٩ - ٩١ من سورة البقرة .
(٥) الآيات التكوينية ما كان من عجيب صنع الله فى خلق السموات والأرض وما فيهن . . والآيات التشريعية ما كان مما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات وحدود لتنظيم معاشهم والاستعداد لمعادهم .
(٦) الثبور:الويل والهلاك بعد الندم على ما تقدم من حابط العمل .
(٧) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٨) من الآيتين : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

بيننا وإليه المصير * والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب لهم حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾[١] . ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾[٢] . ﴿ فلاتذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٣] .

إن الله تعالى يريد بهذه الآيات أن يرفع المشقة عن نبيه ﷺ ويدفع الأسى الذى كان يعانيه من شدة حرصّه على إيمان هؤلاء فيقول:﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾[٤] ويقول : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين * وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعملون * ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٥] .

ويقول تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين * إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾[٦]

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أى مطلع على خفايا النفوس عليم بذات الصدور .

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... فى قاع بحر زاخر متجندل

﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾[٧]

الله يدرى كل ما تضمر ... يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

جزاء عادل

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ

---

(١) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة الشورى .
(٢) الآية : ٩٩ من سورة المائدة .
(٣) من الآية : ٨ من سورة فاطر .
(٤) من الآية : ٢٧٢ من سورة البقرة .
(٥) الآيات : ٣٦ - ٤٠ من سورة النحل .
(٦) الآيات : ٣٣ - ٣٦ من سورة الأنعام .
(٧) الآية : ٧ من سورة طه .

﴿ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) ﴾

المفردات : المراد ب﴿ الذين يكفرون ﴾ هم اليهود خاصة وقوله ﴿ بغير حق ﴾ أى بغير شبهة لديهم و(**حبط العمل**) : بطل . و(**البشارة والبشرى**) : الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه ، واستعمالها فى الشر جاء على طريق التهكم والسخرية .

ما جزاء هؤلاء القوم الذين قتلوا أنبياء الله ، وقتلوا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من المصلحين ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾(١) . . قتلوهم كبراً وبطراً بغير حق ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

لقد وردت عن الصادق المعصوم ﷺ أحاديث حول قتلهم الأنبياء واستهتارهم ، هذه الأحاديث تنفطر القلوب لهولها ، وتنخلع الأفئدة أسى ولوعة ، وتسيل الكبد لها مرارة :

عن عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال (رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر). ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ يا أبا عبيدة : قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من بنى اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل) . رواه ابن جرير . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره » لقد حكم الله على هؤلاء بأحكام قال فيها : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(٣) .

جنايات يندى لها جبين البشرية حياءً وخجلاً : كفر بآيات الله وقتل لأشرف الخلق ؛ لأنبياء الله والآمرين بالمعروف ؛ وعصيان لأوامر الله ، واعتداءٌ على محارم الله وإساءة أدب مع الله تعالى . . . ألم يقولوا : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾(٤) . ألم يقولوا ؟ : ﴿ يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾(٥) . ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما

(١) من الآية : ٣٩ من سورة الأحزاب .
(٢) من الآية : ٦١ من سورة البقرة .
(٣)الآية : ١١٢ من سورة آل عمران .
(٤) من الآية : ١٨١ من سورة آل عمران
(٥) من الآية : ٦٤ من سورة المائدة .

قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[١] .

واسمع معى إلى تلك الصحيفة المليئة بالجنايات التى اقترفوها ، قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً * وإن من أهل الكتاب ألا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾[٢] .

فكانوا جديرين بأن يبشرهم الله بعذاب أليم ويحبط أعمالهم فى الدنيا والآخرة (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من دون الله .

الإعراض عن حكم الله

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات: ﴿ **ألم تر** ﴾: استفهام لتعجب النبى ﷺ من حالهم . و﴿ **الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** ﴾ هم اليهود و(النصيب) : الحظ و﴿ **الكتاب** ﴾ : التوراة ﴿ **ليحكم بينهم** ﴾ : أى ليفصل بين اليهود والداعى لهم وهو النبى ﷺ و(التولى) : الإعراض بالبدن. و (الإعراض) يكون بالقلب و(الافتراء) الكذب و(اليوم) : هو يوم الحساب والجزاء . ﴿ **ما كسبت** ﴾ : أى ما عملت من خير أو شر .

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « دخل رسول الله ﷺ بين المدراس (مدرسة اليهود لدراسة التوراة) على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت

(١) الآيتان : ١٨١/ ، ١٨٢ من سورة آل عمران

(٢) الآيات : ١٥٣/ - ١٦١ من سورة النساء .

يا محمد ؟ قال : (على ملة إبراهيم ودينه) قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله ﷺ : (فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم) فأنزل الله الآية .

وهذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى فيها مدى ما عليه اليهود من إعراض عن الحق ونكوص عن الدعوة إلى الله ، هؤلاء الذين أوتوا جزءا من التوراة ؛ إذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليحكموه فيما شجر بينهم ، كانوا إذا لم يكن الحكم على هواهم تولوا ، وانصرفوا بالأبدان وأعرضوا بالقلوب ، وقد حذر الله تعالى نبيه ﷺ من أفعالهم فقال : ﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾[1] .

هؤلاء القوم كانت لهم جرأة على الحق ، وكانوا مصابين بالصلف والكبرياء بعدما امتلأت نفوسهم وقلوبهم خداعاً وغروراً ، أعرضوا عن حكم الله وعن الرضا بما حكم ، وأعرضوا عن قبول الحق لأنهم قالوا : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾[2] وهى الأيام التى عبدوا فيها العجل والتى قال الله فيها : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون ﴾ أى إن هؤلاء القوم بلغ من ضلالهم : أن الأمر الذى كانوا يفترونه فى دينهم من قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[4] ومن زعمهم أن لهم بالأنبياء صلة قرابة ونسب . كل ذلك غرهم وهذا محض افتراء ، فإن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ؛ ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لكل عاص ؛ ولو كان شريفا قرشياً . قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾[5] فهؤلاء القوم الذين غرهم افتراؤهم فى دينهم : ﴿ وقالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾[6] إنهم بافترائهم فى الدين يكونون قد ضربوا أسوأ الأمثال فى الانحطاط الخلقى ويكونون قد تبوءوا مستنقعاً عفناً من الرذائل ، ولذا قال تعالى بعد ذلك بأسلوب التعجب ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ إنه يوم القيامة يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى ﴾[7] .

إن الله تعالى خاطب هؤلاء القوم الذين اغتروا بافترائهم فى دين الله ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، فقال لهم مولانا : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾[8] .

(١) من الآيتين : ٤١ ، ٤٢ من سورة المائدة .
(٢) من الآية : ١٠ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٨٠ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ١٨ من سورة المائدة .
(٥) الآيات : ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .
(٦) من الآية : ٧٥ من سورة آل عمران .
(٧) الآيات : ١٠ - ١٥ من سورة المعارج .
(٨) الآيتان : ٤٧ ، ٤٨ من سورة البقرة .

نعم ﴿فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[١] قال الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه . . إلى ريحانته فاطمة : (يا فاطمة بنت محمد : اعملى لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا عباس يا عماه : اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة محمد : اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا)[٢] .

ليس هناك فى دين الله ما يسمى بشعب الله المختار ، فالناس جميعاً عبيد الله وهو ربهم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، وليس هناك ما يقال نحن أبناء الله وأحباؤه ، بل ميزان العدالة عند الله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٣] وليس فى منطق العدالة الإلهية ما يقال : إن لنا نسباً بالأنبياء ، بل إن هناك المنطق القرآنى العادل : ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وإن إلى ربك المنتهى ﴾[٤] .

إن الولد يوم القيامة يلقى والده ويقول له يا أبت لقد كنت بك براً وإليك محسناً وعليك مشفقاً فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول والده : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك إننى أشكو مما منه تشكو !! صدقت يا ربنا ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٥] . ﴿ لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[٦] . (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٧] وتلقى الأم ولدها يوم القيامة فتقول يا بنى : لقد كان بطنى لك وعاء وثديى لك سقاء وحجرى لك غطاء ؛ فهل أجد عندك حسنة يعود علىّ خيرها اليوم ؟ . فيقول : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك إننى أشكو مما منه تشكين . . هذا هو منطق العدالة الإلهية : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[٨] .

الله مالك الملك

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الملك ﴾ :السلطة والتصرف فى الأمر ﴿ بيدك الخير ﴾ الخير كله تتصرف فيه أنت وحدك (الولوج) : الدخول (الإيلاج) : الإدخال .

---

(١) الآيات : ٣٤ - ٣٧ من سورة عبس .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٤) الآيات : ٣٦ - ٤٢ من سورة النجم .
(٥) من الآية : ٢٥ من سورة آل عمران .
(٦) من الآية : ١٧ من سورة غافر .
(٧) من الآية : ٤٧ من سورة الانبياء .
(٨) من الآية : ١٨ من سورة فاطر .

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله الآية[١] .

وهاتان الآيتان ناطقتان بالجلال والعظمة لمالك الملك ، فبعدما أخبرنا سبحانه بأنه سيجمع الناس ليوم لا ريب فيه ، أخبر هنا بأنه الملك المتصرف بمشيئته وحكمه فهـو يؤ تى الملك من يشاء ، كما آتاه لـداود وسليمان ، وينزع الملك ممن يشاء ، كما نزعه من القياصرة والجبابرة والأباطرة ، وغيرهم من عاد وثمود وفرعون والنمروذ ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[٢] ويقول الله تعالى عن ملك مصر فرعون ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾[٣] قال تعالى بعد ذلك فى سورة الدخان ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾[٤] فاللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء ، ومن الفقر بعد الغنى ، ومن الضلالة بعد الهداية ، نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين .

وكما أن مولانا جلت قدرته ، مالك الملك وملك الملوك ، يؤ تى الملك وينزعه ، فهو الذى يعز من يشاء بالطاعة ، ويذل من يشاء بالمعصية .

إذا المرء لم يلبس ثيابـاً من التقى تقلب عريانا ولو كـان كاسيـاً
وخير لباس المـرء طاعـة ربه ولا خير فى من كان لله عـاصيـا

لقد أعز الله الحبيب محمدا بالرسالة،وأذل عبد الله بن أبى بن سلول بالنفاق ولما قال ابن أبى : لئن رجعت إلى المدينة لأخرجن محمداً منها ذليلاً وأنا العزيز !! قال الله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[٥] .

فليعلم جبابرة الأرض أن دوام الحال من المحال ، وأن العدل أساس الملك ، وأن دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وأن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمرَّ ، وأن الدنيا إذا حلت أَوْحَلت ، وإذا جلت أَوْجَلت ، وإذا كست أَوْكست ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت

---

(١) ورواه القرطبى عنهماج - ٤ ص ٥ ، وإن ذكر روايات أخرى كأسباب للنزول ، منها دمغ باطل نصارى نجران إذ قالوا : إن عيسى هو الله وروى عن معاذ بن جبل تعليم النبى ﷺ قراءة هاتين الآيتين عند الدين فإن سبحانه كفيل بالتوسعة لسداد الدين وقضائه وخرج أبو نعيم كما روى مثله عطاء الخراسانى عن معاذ .

(٢) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٤٠ من سورة القصص .

(٤) الآيات : من ٢٥ - ٢٨ من سورة الدخان ، أما : ﴿ فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ﴾ فهى الآيات : ٥٧ - ٥٩ من سورة الشعراء .

(٥) من الآية : ٨ من سورة المنافقون .

جفت ، وكم من قبور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا . . مات[١] .

ولى فى فنـاء الخلق أكبـر عبـرة — لمن كـان فى بحـر الحقيقـة راق
شخــوصُ وأشكــالُ تُمـر وتنقضى — فتفـنى جميـعـاً والمهيمـن بــاق

قوله تعالى : ﴿ بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ أى أنت المتصرف ، فالخير كله بيدك ، لا يملكه غيرك ، وأنت الذى يحار الفهم فى قدرتك لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، ومن مظاهر تلك القدرة الباهرة : أنك ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ ، من غيرك يستطيع ذلك ؟ أنت الذى تدخل جزءاً من الليل فى النهار فيقصر الليل ويطول النهار ، وتدخل جزءاً من النهار فى الليل فيطول الليل ويقصر النهار[٢] كرة معلقة فى فضاء رهيب ، تدور حول نفسها فيكون الليل والنهار ، وتدور حول الشمس مرة كل عام فتكون الفصول الأربعة ، من غيرك يستطيع هذا يا من تحديت الجبابرة والطواغيت ، وقلت : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٣] .

سل الواحـة الخضراء والماء جاريـا — وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى — سل الليل والإصباح والطير شـاديا
فلو جن هـذا الليل وامتـد سـرمـداً — فمن غـير ربى يرجـع الصبح ثـانيـاً
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت — أفى كونكم من يمسك الـريح نـاهياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم — سـوى الله يجـريـه كـما شـاء راويـا

ومن مظاهر القدرة الباهـرة أنه سبحـانه : يخـرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهـذا الإخراج . قد يكون فى المعنويات مثل إخراج المؤمن من صلب الكافر ، وإخراج الكافر من صلب المؤمن ، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل يقول : « سبحان الله يخرج الحى من الميت » وقد يكون ذلك الإخراج فى المحسوسات ، كإخراج الخلايا الحية من الغذاء الميت وإخراج الإفرازات الميتة من الأجسام الحية .

ومن مظاهر مشيئتك الحكيمة أنك يا مولانا ترزق من تشاء بغير حساب ، أى بدون تعب ومشقة كما رزق الأمة الإسلامية بالبترول يجرى فى عروق الأرض .

(١) يعرض الشيخ هنا عجائب الدنيا التى لا يدوم حال منها لصاحبه فإن الدنيا إذا حلت فى عين صاحبها آذنت بالوحل كناية عن الخوض فى أوحال المعاصى ، وإذا جَلَتَ من الجلوة وهو الشهرة آذنت بالوجل وهو الخوف ومداهمة الاحداث ، وإذا كست صاحبها مظهرا براقا أوكسته بالخيبة والخسران بعد حين ، وإذا أينعت أى ازدهر حالها ، آذنت بالنعى وهو انقضاء النعمة والازدهار .
والقبور تبنى ولا يتوب الناس وكم من مريض عدنا فلم بالموعظة وخوف المرض والموت ، واعلامهم فإن العلالهم نذير بالموت .

(٢) كما يفهم من الآية الحقيقة الكونية التى تتمثل فى قدوم الليل على النهار وقدوم النهار على الليل فلا ينسلخ أحدهما فجأة ولا يدخل فجأة وهو المعنى اللغوى للايلاج وهو رأى ابن مسعود ، وما ذكر الشيخ هو رأى ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى .

(٣) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

هذا وقد ورد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه :

١ - بمعنى التعب كما فى هذه الآية .
٢ - بمعنى العدد كما فى قوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1].
٣ - بمعنى المطالبة كما فى قوله : ﴿ فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾[2].

ولاية الكافرين

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

المفردات : (الأولياء) واحدهم ولىّ وهو النصير . ﴿ **تقاة** ﴾ أى اتقاء وخوفا ﴿ **ويحذركم** ﴾ : أى يخوفكم و ﴿ **أمدا** ﴾ : المدة لها حد محدود . ﴿ **محضراً** ﴾ : أى حاضراً لديها .

روى أرباب السير أن بعض الذين كانوا يدخلون فى الإسلام يغترون بعزة الكافرين وقوتهم فيوالونهم ويركنون إليهم وليس هذا بالمستغرب بل هو أمر طبيعى فى البشر .

وروى عن ابن عباس أنه قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد من اليهود ؛ يلازمون نفرا من الأنصار يفتنونهم عن دينهم ؛ فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود . فأبى أولئك النفر إلا ملازمتهم . فأنزل الله الآية . وهذا نهى من الله تعالى موجه إلى الجماعة المؤمنة ، وهو إرشاد وتوجيه فى نفس الوقت للجماعة المؤمنة أن تتخذ المؤمنين أولياء ونصراء ، وألا تتخذالكافرين أصفياء ونصراء من دون المؤمنين ، فمن اتخذهم أولياء وأصفياء من دون المؤمنين ، فليس عمله هذا من طاعة الله فى شىء ، إنما هو بعيد كل البعد إلا أن يكون ذلك تقية لدفع ضرر أو جلب منفعة للأمة .

قال الشيخ المراغى رحمه الله فى تفسيره لهذه الآية : « أى لا يصْطفِ المؤمنون الكافرين فيكاشفوهم

(١) من الآية : ١٠ من سورة الزمر .
(٢) من الآية : ٣٩ من سورة ص .

بالأسرار الخاصة بالشئون الدينية ، ويقدموا مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، إذ فى هذا تفضيل لهم عليهم ، وإعانة للكفر على الإيمان » . وخلاصة هذا نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين لقرابة أو صداقة جاهلية ، أو جوار أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة ؛ بل ينبغى أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب ، ومن ثم تكون موالاة المؤمنين أجدى لهم فى دينهم من موالاة الكافرين . فإن كانت الموالاة والمحالفة لمصلحة المسلمين فلا مانع منها ، فقد حالف النبى ﷺ خزاعة وهم على شركهم ، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته فى أمور الدنيا ، ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ﴾ أى ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين ، فليس من ولاية الله فى شىء أى فليس بمطيع له ولا ناصر لدينه ، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة ، ويكون من الكافرين كما جاء فى الآية الأخرى . ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾[1] ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاه ﴾ أى إن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم فى كل حال ؛ إلا فى حال الخوف من شىء تتقونه منهم ، فلكم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يتقى ذلك الشىء ، إذ القاعدة الشرعية « أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » وإن جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين ، و إذا فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة ، لفائدة تعود إلى الأولى إما بدفع ضرر أو جلب منفعة ، وليس لها أن تواليها فى شىء يضر المسلمين ، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف بل هى جائزة فى كل وقت .

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية ؛ بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق ، لأجل توقى ضرر من الأعداء يعود إلى النفس أو العرض أو المال ، فمن نطق بكلمة الكفر مكرَها وقاية لنفسه من الهلاك ، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافرا ، بل يعذر كما فعل عمار بن ياسر ، حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرها ، وقلبه ملىء بالإيمان وفيه نزلت الآية : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾[1] وكما عذر الصحابى الذى قال له مسيلمة : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فتركه وقتل رفيقه الذى سأله هذا السؤال فقال إنى أصم « ثلاثاً » فقدمه وقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه) ، وهى من الرخص لأجل الضرورات العارضة لا من أصول الدين المتبعة دائما ، ومن ثم وجب على المسلم الهجرة من المكان الذى يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية ، ومن كمال الإيمان ألا يخاف فى الله لومة لائم كما قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[2].وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾[3].

---

(١) الآية : ١٠٦ من سورة النحل .
(٢) من الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .

وكان النبى ﷺ وأصحابه يتحملون الأذى فى سبيل دعوة الدين ويصبرون عليه .

ويدخل فى التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة ، ولين الكلام لهم والتبسم فى وجوههم ، وبذل المال لهم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم ، ولا يعد هذا من الموالاة المنهى عنها ، بل هو مشروع ؛ فقد أخرج الطبرانى قوله ﷺ : (ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة) ، وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده . . فقال رسول الله ﷺ : (بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة) ثم أذن له فألان له القول ، فلما خرج ، قلت يا رسول الله قلت ما قلت ، ثم ألنت له القول ! ؟ فقال ياعائشة : « إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه) رواه البخارى ، وروى قوله ﷺ (إنا لنكْشِر (نبتسم) فى وجوه قوم ، وإن قلوبنا لتقليهم) (تبغضهم) . ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ أى عقاب نفسه ، وفائدة ذكر ﴿ **نفسه** ﴾ الإيماء إلى أن الوعيد صادر منه تعالى ، وهو قادر على إنفاذه ولا يعجزه شىء عنه . وفى ذلك تهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه ؛ لأن شدة العقاب بحسب قوة المعاقب وقدرته .

﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ أى وإلى الله مرجع الخلق وجزاؤ هم فيجزى كلا بما عمل : ﴿ **قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ أى إنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم إذ توالون الكافرين أو توادونهم أو تتقون منهم ما تتقون ، فإن كان ذلك يميل بكم إلى الكفر جازاكم عليه ، وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ، ولم يؤ اخذكم على عمل لا جريمة فيه على الدين ولا على أهله ، وهو إنما يجازيكم بحسب علمه المحيط بما فى السموات والأرض ، لأنه الخالق لهما . كما قال : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾[1] . ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ ، فهو يقدر على عقوبتكم فلا تجسروا على عصيانه وموالاة أعدائه ، إذ ما من معصية خفية كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها قادر على عقاب فاعلها . ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا** ﴾ أى احذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير حاضرا لديها ، فيكون ذلك غبطة وسروراً لها ، وتنعم بما أحسنت ، وتبتئس المسيئة وتغتم بما أساءت ، وتود أن ما عملت من السوء كان بعيدا عنهالم تره حتى لا تؤاخذ بجريرته ، ومعنى كونه محضرا أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لها .

﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ أى احذروا من سخط الله ، بترجيح جانب الخير وعمله على ما يزينه لكم الشيطان من عمل السوء ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)[2] .

﴿ **والله رءوف بالعباد** ﴾ . قال الحسن البصرى : ومن رأفته أن حذرهم نفسه وعرفهم كمال علمه وقدرته ، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه ، ومن رأفته أيضا أن جعل الفطرة الإنسانية ميالة بطبعها إلى الخير ، مبغضة لما يعرض لها من الشر ، وأن جعل أثر الشر فى النفس قابلا للمحو بالتوبة و العمل الصالح .

---

(١) من الآية : ١٤ من سورة الملك .
(٢) جزء من الآية : ٣١ من سورة النور .

محبة الله فى اتباع رسوله

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات : (**المحبة**) : ميل النفس إلى الشىء لكمال أدركته فيه ، فيدعوها ذلك إلى التقرب إليه ﴿ **يغفر لكم** ﴾ . أى يتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة ﴿ **فإن تولوا** ﴾ : أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك .

روى أن هذه الآية نزلت حين دعا رسول الله ﷺ : كعب بن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان فقالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[١] فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إنى رسول الله إليكم أدعوكم إليه ، فإن كنتم تحبونه فاتبعونى وامتثلوا أمرى يحببكم الله ويرضى عنكم .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿قل إن كنتم تحبون الله . . . ﴾ قال عبد الله بن أبى ابن سلول : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى فنزل قوله : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ أى قل لهم : أطيعوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وأطيعوا رسوله باتباع سنته والاهتداء بهديه .

وفى هذا إرشاد إلى أن الله إنما أوجب عليكم متابعته لأنه رسوله ، لا كما يقول النصارى فى عيسى .

وقد أخبر النبى ﷺ أنه : ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[٢] وقد قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله ، فقال : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾[٣] وقال فى آيات أخرى :﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها أبداً لا يجدون وليا ولا نصيرا * يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾[٤] وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[٥] وهنا لفتة طيبة فى قوله تعالى : ﴿ إذا دعاكم ﴾ ولم يقل إذا دعَوَاكم أى الله ورسوله بغير المثنى ، لأن دعوة الرسول هى من دعوة الله تعالى ، وقال تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾[٦] ولم يقل أحق أن يرضوهما ، لأن إرضاء الرسول من إرضاء الله ، وقال جل جلاله : ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[٧] . فمن تولى عن هذا وأعرض ، وأصرَّ على الباطل ، واستكبر عن الحق وأعرض عن ذكر ربه ﴿ **فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ الجاحدين للإيمان بالله والطاعة لرسوله .

---

(١) من آية ١٨ من سورة المائدة .
(٢) رواه [illegible] .
(٣) من الآية : ٨٠ من سورة النساء .
(٤) الآيات : ٦٤ - ٦٦ من سورة الأحزاب .
(٥) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .
(٦) من الآية : ٦٢ من سورة التوبة .
(٧) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الفتح .

إصطفاء الله

*إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

المفردات : (الاصطفاء) أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء و(الذرية) فى أصل اللغة الصغار من الأولاد ، ثم استعملت عرفا فى الصغار والكبار للواحد ولأكثر من الواحد ، و (النذر) : ما يوجبه الإنسان على نفسه و(المحرر) : المخصص للعبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر ، و(التقبل) : أخذ الشيء على وجه الرضا والقبول : ﴿ **أعيذها بك** ﴾: أى أمنعها وأجيرها بحفظك ، وأصل العوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به ، يقال : عاذ بفلان : إذا استجار به و ﴿ **الرجيم** ﴾: أى المرجوم المطرود من الخير و ﴿ **مريم** ﴾: بالعبرية خادم الرب و ﴿ تقبل الشيء ﴾: وقبله أى رضيه لنفسه ﴿ **وأنبتها** ﴾ : أى رباها بما يصلح أحوالها ، ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾ : أى وجعل زكريا كافلا لها وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام و﴿ **المحراب** ﴾ هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ، وهو مقصورة فى مقدمة المعبد ، لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة ، يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد[1] ﴿ **أنى لك هذا** ﴾: أى من أين لك هذا والأيام أيام قحط وجدب ﴿ **بغير حساب** ﴾: بغير عد ولا إحصاء لكثرته .

بعدما بيَّن الله تعالى أن محبته مبنية على طاعة رسوله واتباعه ، ذكر هنا أنه ﴿ **اصطفى** ﴾: هذه الكوكبة الطاهرة ﴿ **آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران** ﴾ فيامن أنكرتم اصطفاء الله لخاتم الأنبياء حسدًا وبغيا من عند أنفسكم ، يا من أنكرتم ذلك على رسول الله ﷺ لماذا أقررتم باصطفاء الله لأنبياء سابقين ؟ ! قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون

(١) والأصل اللغوى فى المحراب صدر المكان أو على مكان فيه ، أو خلوة العبادة .

وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين * ﴾[١] .

إن اصطفاء الله تعالى لآدم من وجوه كثيرة : فقد خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأدخله جنته ، وأهبطه منها لحكمة يعلمها سبحانه ، وتاب عليه وشرفه بالنبوة ، كما اصطفى نوحا بالرسالة وبداية الخلق ، وجعله أبا للبشرية بعد آدم ، وفتح به قلوبا غلفا وأرشد به الحائرين ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، كمااصطفى آل ابراهيم بجعل النبوة فيهم ،وآل عمران كذلك . . قوله تعالى : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أى إن هؤلاء الأنبياء سلائل بعضها يلد بعضاً ، أويكون المقصود من هذا النص الكريم أنهم متماثلون فى الأخلاق العلية والاصطفاء الربانى والرسالات السامية ، فهم نور على نور ، وأصولهم طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، فآل عمران من آل إبراهيم ، وآل ابراهيم من نوح ، ونوح من آدم . ﴿ والله سميع عليم ﴾ فقد سمع دعاء امرأة عمران واسمها « حِنا » وعمران هذا غير عمران الذى ورد ذكره فى الآية السابقة فى قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران ﴾ فعمران فى تلك الآية هو:أبو موسى وهارون ، وعمران فى الآية التى بين أيديناالآن هو أبو مريم وجد عيسى لأمه ، لقد نذرت أم مريم : إن رزقها الله بمولود لتجعلنه خالصا متفرغا لخدمة بيت المقدس . وسمع الله دعاءها لأنه السميع لأقوال عباده ، ﴿ يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾[٢] . ﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ ورب العزة يقول : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ وهذا تعبير يقصد به تشريف ما وضعت حيث أسند علم الله إليه وهو العليم بكل شىء ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾[٣] . وكما فى قوله جل جلاله:﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾[٤] . وقوله تعالى : ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أى ليست هذه الحقيقة كتلك الحقيقة ، فقد يتحمل الذكر من المشاق واحتمال الكد ما لا تستطيعه الأنثى ، خاصةوأن المقام مقام خدمة وعمل فى بيت المقدس قالت : ﴿ وإنى سميتها مريم ﴾ أى العَبَّادة الخادمة لبيتك ، ولما رزق النبى ﷺ بإبراهيم ، قال :« لقد رزقت الليلة بمولود سميته إبراهيم » ، وفيه دليل على جواز تسمية المولود عندما يولد ، قالت امرأة عمران : ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ وكان لقولها هذا بركة من عند الله ورعاية ، فقد لجأت إلى الله واستجارت به ليحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم واستجاب الله تعالى : فحفظ مريم وابنها من الشيطان : روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (كل بنى آدم ينخسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها ﴾[٥] .

---

(١) الآيات : ٨٣ - ٩٠ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية : ٤ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ٢٧٠ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢٦ من سورة الكهف .
(٥) لفظ مسلم هكذا : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل إلا ابن مريم وأمه ، ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتهامن الشيطان الرجيم ﴾

فتقبل الله مريم لخدمة بيته ﴿ **بقبول حسن وأنبتها** ﴾ ورباها ﴿ **نباتا حسنا** ﴾ وضمها إلى زكريا فكفلها بعناية ورعاية ، وقد أجرى الله الخير على يديها ، ففى أيام القحط والجدب ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا** ﴾ وهو الذى يسوقه الله إليها من مأكل ومشرب ، فيسألها زكريا سؤال تعجب ﴿ **يامريم أنى لك هذا** ﴾ أى من أين لك هذا فتجيبه بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **هو من عند الله** ﴾ ﴿ ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾[1] . ثم تضيف مريم قائلة : ﴿ **إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ فالمشيئة هنا مبنية على علم وحكمة و﴿ **بغير حساب** ﴾ أى بغير تعب ولا كد .

مع زكريا ويحيى

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

المفردات:

﴿ **الذرية** ﴾ : الولد وتقع على الواحد وأكثر و (الطيب) : ما تستطاب أفعاله وأخلاقه ﴿ **سميع الدعاء** ﴾ أى مجيبه كما يقال : سمع الله لمن حمده إذ من لم يجب فكأنه لم يسمع . و﴿ **كلمة الله** ﴾ عيسى عليه السلام و(السيد) : الرئيس الذى يسود قومه (الحصور) من الحصر[2] وهو الحبس أى يحبس نفسه ويمنعها مما ينافى الفضل والكمال . ﴿ **من الصالحين** ﴾ : أى من أصلابهم والصلاح صفة تجمع الخير كله ، ﴿ **أنى يكون لى** ﴾ أى كيف يحصل لى . ﴿ **بلغنى الكبر** ﴾ : أى أدركنى كبر السن وأثر فىّ ، ﴿ **عاقر** ﴾ : أى عقيم لاتلد . ﴿ **آية** ﴾ : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل إذا حدث لأتلقى النعمة بالشكر . ﴿ **ألا تكلم الناس** ﴾ أى لاتستطيع الكلام . و(الرمز) : أى الإشارة بيد أو رأس أو غيرهما ، وسمى الرمز كلاما لأنه يفيد ما يفيده الكلام ، ويدل على ما دل عليه ، و﴿ **العشى** ﴾ : الوقت من الزوال إلى الغروب . و﴿ **الإبكار** ﴾ : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

---

(١) الآية : ٣ من سورة فاطر .

(٢) والحصور الذى لا يأتى النساء كأنه ممنوع يكون فى الرجال : عن ابن مسعود وغيره وعن ابن عباس وابن جبير وقتاده وعطاء وغيرهم . الذى يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة ، واستحسن القرطبى الرأى الثانى لما فيه من مدح وثناء على يحيى : الجامع لأحكام القرآن : ج ٤ ص ٧٨ .

لما رأى زكريا ما رأى من صلاح مريم وتقواها ، والرزق الذى تكرّم الله تعالى به عليها فى هذا المكان المبارك ، ﴿ دعا زكريا ربه ﴾ : وكانت امرأته عاقرا . وقد كان طاعنا فى السن . قال تعالى فى سورة مريم : ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداءً خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾[1] وفى سورة آل عمران قال تعالى : ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ .

فتأمل معى كيف وصف الذرية التى طلبها بالطيبة ، وفى سورة مريم قال : ﴿واجعله رب رضيا ﴾[2] إذ إن لم يكن طيبا رضيا كان وبالاً على أهله . كان نبى الله داود يدعو الله فيقول : « أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة تعيننى على أمر دينى ودنياى ، وأعوذ بك من مال يكون وبالاً علىّ ، ويستمتع به غيرى ، ومن ولد يكون علىّ سيداً ، ومن جار سوء ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب » .

لقد وصف زكريا ابنه بصفتين ، وأعطاه الله ولدا جمع فيه صفات الكمال ، فقد كان نبيا سماه الله يحيى ، لما فى ذلك الاسم من روح التفاؤل بأنه سيحيا ، ووصفه بأنه سيكون مصدقا بكلمة من الله ، والمقصود به المسيح ابن مريم ، الذى خلقه الله تعالى بكلمته ﴿كن فيكون ﴾ . كما وصف الله يحيى بأنه سيكون سيد قومه ، ذا شرف ونباهة ذكر ، وهو أيضا من الصالحين ، أى هو صالح ومن ذرية قوم صالحين ، كما سبق . قال تعالى : ﴿ **ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾ قال جل شأنه : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب** ﴾ فتأمل معى الحال التى كان عليها حين نادته الملائكة ، كان قائما يصلى ! إنها حالة من أشرف الحالات ! لم يكن لاهيا ولا ساهيا ولا غافلا ، لذا كان جديرا بأن تناديه ملائكة السماء : فبأى شىء أخبروه : ﴿ **أن الله يبشرك بيحيى** ﴾ . الله هو الذى يبشر ! فما أشرف هذه البشرى ، إنها من الله القادر المقتدر مالك الملك وملك الملوك ، ويبشر بمولود هو الذى سماه ولم يُسَمَّ بذلك الاسم أحد قبله ، قال تعالى : ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا﴾[3] . ما أجمل هذه البشرى . . المبشر بها هو الله ، وهى بشرى بمولد غلام لأبوين ؛ الأب قد بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقر ، وبأى غلام ؟ سماه الله وجعله مصدقا بنبيه عيسى ، وجعله سيدا وحصورا ، أى محبوسا عن الشهوات عفيفا ، ثم يأتى الشرف الذى لا يدانيه شرف . . إنه شرف النبوة . . ثم يصفه بأوصاف تمتلىء النفس لها سعادة ، فهو من الصالحين .

ويصفه فى سورة مريم فيقول : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾[4] ماذا قال زكريا عندما بشِّرَ بيحيى ؟ ﴿ **قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر** ﴾ لم يكن هذا الاستفهام استبعادا ، فهو يعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأنه سبحانه قد أحاط بكل شىء علما ،

(١) الآيات : ٢ - ٤ من سورة مريم .
(٢) من الآية : ٦ من سورة مريم .
(٣) الآية : ٧ من سورة مريم .
(٤) الآيات : ١٢ - ١٥ من سورة مريم .

وأحصى كل شىء عددا ، إنما كان المقصود بالاستفهام الكيفية التى سيرزق بها الولد ، هل سيرزقان ، وهما على هذه الكيفية ، بلغه الكبر وامرأته عاقر ، أم أنهما سيرجعان إلى سن الشباب ؟؟ فجاء الرد من الله تعالى : ﴿ **كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾ وفى سورة مريم : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك ، قال ربك هو علىّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا *﴾[1] .

فطلب زكريا من ربه أن يجعل له آية وعلامة يستدل بها على أن امرأته حامل ، فقال له الله : ﴿ **آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا** ﴾ أى سيحبس لسانك عن الكلام ، فلا تتكلم إلا بالإشارة ، ثم أوصاه بكثرة الذكر فقال : ﴿ **واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار** ﴾ أى غدوة وأصيلا ، ولكن كيف يحبس لسانه عن الكلام ويؤمر بالتسبيح ؟ أليس التسبيح باللسان ؟ قالوا إن الكلام مع الناس هو الذى كان فيه حبس اللسان أما ذكره لله فتسبيحه إياه بكرة وأصيلا فكان لسانه ينطق به . . وولد يحيى وأعطاه الله من لدنه فضلا عظيما . روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت .

مريم والمسيح

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

المفردات : (الاصطفاء الأول) قبولها محررة لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالرجال و (التطهير) يعم التطهير الحسى كعدم الحيض والنفاس ، وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد ، والتطهير المعنوى كالبعد عن سفاسف الأخلاق وذميم الصفات (الاصطفاء الثانى) بما اختصت به من ولادة نبى من غير أن يمسها رجل وهو اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل ، بل هى متهيئة ومعدة له وفيه شهادة ببراءاتها مما قذفها به اليهود . (القنوت) . الطاعة مع الخضوع !

روى ابن جرير وابن اسحق وابن المنذر : أن هذه الآيات وما بعدها نحو ثمانين آية ، نزلت فى نصارى نجران : إذ وفدوا على رسول الله ﷺ ، وكانوا نحو ستين راكبا ، وخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : أنتم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ! قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال:فهل يملك عيسى من ذلك شيئا . قالوا لا . قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

(١) الآيتان : ٨ ـ ٩ من سورة مريم .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ . قالوا : بلى . قال فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ، ثم أبوا إلا جحوداً ! . . فأنزل الله ﴿ ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر هذه الآيات .

ووجه الرد عليهم – أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادىء ذى بدء ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حيا قيوما:أى قامت به السموات والأرض،وهى قد وجدت قبل عيسى،فكيف تقوم به قبل وجوده ،ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب ، وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحى وشرع الشرائع قبل وجوده ، كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده القرآن ، فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء ، وإنما هو نبى مثلهم . ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل ، وعيسى لم يكن واهبا العقول ثم قال:﴿ إنه لا يخفى عليه شىء ﴾ليرد على استدلالهم على ألوهية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى شىء مطلقا ، سواء أكان فى هذا العالم أم غيره من العوالم السماوية ، وعيسى من غير أب إذ الولادة من غير أب ليست دليلا على الإلوهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق ، وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف شاء ، وعيسى لم يصور أحداً فى رحم أمه ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الكتاب وجعله قيما محكم العبارة محفوظا من الاحتمال والاشتباه ، وهو الأصل الذى دعا الناس إلى تدبر معانيه والعمل به ، وإليه يرجع فى فهم المتشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شىء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ، ولم يمكن الترجيح كالاستواء على العرش وكون روح عيسى روح الله وكلمته ،ثم بين أن الناس فى هذا انقسموا فرقتين : فرقة زائغة يرجعون فى تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم ، لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، وفرقة يقولون آمنا به ونفوض علمه إلى ربنا وقد دعوه ألا يضلهم بعد الهداية ، ويرزقهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة .

وإنما أعدنا هنا ذكر سبب نزول الآيات التى وردت من أول السورة إلى نحو ثمانين آية ، لأن المقام هنا ذكر فيه المسيح وأمه ، والآيات الكريمة نزلت لإثبات وحدانية الخالق جل فى علاه ، ونفى الألوهية عمن سواه وإثبات بشرية المسيح وأمه ، قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء * ﴾ .

فهذا المشهد القرآنى هو المناط الذى تبنى عليه الأحكام من الوحدانية لله الخالق والبشرية للمسيح المخلوق فليكن القارىء على ذكر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ المقصود بالملائكة هنا الأمين جبريل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾[١] ولا يمنع هذا من أن يكون المقصود الملائكة عند إخبارها بالاصطفاء والتطهير ، أما جبريل فهو المقصود بتبشيرها بمولد المسيح عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً* قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ .[٢]

وهذه الآية : ﴿ **إن الله اصطفاك** ﴾ جاءت تخصيصاً لمريم ، بعد تعميم الاصطفاء بقوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ والمقصود بالإصطفاء الأول فى الآية الكريمة اختيارها لخدمة بيت المقدس . مع أنها أنثى ، والتطهير هنا حسى ومعنوى ، أما كونه حسياً فقد طهرها الله من دم الحيض والنفاس وغير ذلك ، والمراد بالتطهير المعنوى تطهير قلبها ونفسها من الرذائل وتواقة الأشياء فقد كانت رضى الله عنها ذات همة عالية .

والمقصود بالاصطفاء الثانى : هو أن الله اختصها : بمولد المسيح على غير العادة المتبعة ، فقد خلقه الله فى رحمها بدون أن تتزوج ، وقد يكون المقصود بالاصطفاء الثانى ما جاء فى الحديث الشريف : (كمل من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة) .

قوله تعالى : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾ هذا توجيه إلهى كريم لمريم أن تقدم الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليها من الاصطفاء والتطهير وذلك بطاعتها لله وسجودها وركوعها فى الصلاة ، فالسجود والركوع من أهم الأركان لما فيهما من معنى الخضوع والتضرع لله ، وإنما قدم السجود على الركوع فى الذكر لأنه أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد ، ولذا فإن السجود من مواضع استجابة الدعاء .

قوله جل شأنه : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ **يطلق الوحى فى القرآن الكريم على معان** :

(١) لكلام جبريل للأنبياء كما قال تعالى : ﴿ نوحى إليهم ﴾[٣] .
(٢) وللإلهام كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾[٤] .
(٣) وللإلقاء المعنى المراد فى النفس كما قال تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾[٥] .
(٤) وللإشارة كما قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾[٦]

فالوحى : تعريف الموحى إليه بأمر خفى من إشارة أو كتابة أو غيرهما .

---

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم .
(٢) الآيات : ١٦ - ١٨ من سورة مريم .
(٣) جزء من الآيات : ١٠٩ من سورة يوسف ، ٤٣ من سورة النحل ، ٧ من سورة الأنبياء .
(٤) من الآية : ٧ من سورة القصص .
(٥) الآية : ٥ من سورة الزلزلة .
(٦) من الآية : ١١ من سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ .

المراد بالأقلام السهام التى كانوا يضربون بها القرعة[١] ومعنى يختصمون أى يتنازعون فى كفالة مريم من الذى يضمها إليه ليربيها ويقوم على رعايتها وشأنها .

ومعنى الآية الكريمة أن هذا القصص الذى قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا ، من الأخبار التى لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأ فى كتاب ، ولا علمكها معلم ، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك وإلزاماً لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أى وما كنت شاهداً وهم يتنازعون ويختصمون فى كفالتها ولم يتفقوا عليها إلا بعد القرعة والمتنازعون كانوا من الخواص وأهل الفضل والدين،ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم فى القيام بشأنها وكفاية مهامها ، إما لأن عمران كان رئيساً لهم ، فأرادوا مكافأته قياماً ببعض ما يجب له من الحقوق ، وإما لأنهم وجدوا فى بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم ، وإما لأنهم رأوا فى ذلك القيام بواجب دينى إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة .

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم لأنه أمى ، ولم يروها سماعاً عن أحد ، كما يعترف بذلك منكروا نبوته، لأنه نشأ بين قوم أميين ، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحى أو المشاهدة ، والوحى ينكرونه ؛ فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التى نفاها على سبيل التهكم ، لاستحالتها ونظير هذه الآية قوله : عقب قصة نوح عليه السلام ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾[٢] وقوله بعد قصة موسى وشعيب : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾[٣] والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيما وافق فيه القرآن كتبهم : إنه مأخوذ منها وفيما خالفها إنه ليس بصحيح ؛ لأنه خالفها ، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها ، وهذا من المكابرة التى لا تغنى حجة لرد خصم على خصم ، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق ، للأدلة القائمة على نبوة النبى ﷺ ، وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ، وما جاء فيه مخالفاً لما فى الكتب السابقة يعد مصححا لأغلاطها ، لانقطاع أسانيدها ، حتى إن أعظمها وأشهرها وهى الأسفار التى تنسب إلى موسى عليه السلام ؛ لا يعرف كاتبها ، ولا الزمن الذى كتبت فيه ، ولا اللغة التى كتبت بها أولاً .

[نص على هذا الشيخ المراغى فى تفسيره]

التبشير بالمسيح . .

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

(١) وروى أنها أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة هود .

(٣) من الآية ٤٦ من سورة القصص .

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

المفردات : (الوجيه) : ذو الجاه والكرامة و ﴿ **المهد** ﴾ : مقر الصبى حين رضاعه . و (الكهل) من تجاوز الثلاثين إلى الأربعين ، ﴿ **الكتاب** ﴾ الكتابة والخط ، ﴿ **والحكمة** ﴾ : العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة إلى نافع العمل ، ويقف بالعامل على نهج الصراط المستقيم لما له من بصر بفقه الأحكام وسر التشريع ، ﴿ **التوراة** ﴾ : كتاب موسى ، وقد كان المسيح عليماً به يبين أسراره لقومه ويحتج عليهم بنصوصه ، ﴿ **الإنجيل** ﴾ : هو الكتاب الذى أوحى إليه به ، (والخلق) التصوير والإبراز على مقدار معين وليس الإنشاء والاختراع (الهيئة) : الصورة ، و ﴿ **الأكمه** ﴾: الذى يولد أعمى ، ﴿ **الأبرص** ﴾ : هو الذى به برص أى بياض فى الجلد يتطير به ويهرب الناس منه خوف العدوى .

هذه آيات تحدد معالم الحق فى شأن المسيح عليه السلام ، فهو مخلوق وهو بشر وهو وأمه كما قال الله تعالى﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾[1] فقد حلّ الإسلام كل المشاكل بقول الله تعالى : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ تلك حقيقة لا يمارى فيها أحد . إنهما كانا يأكلان الطعام ، فمن أكل الطعام فهو جسم إذ الخلية الحية تتكون من هذا الغذاء ، ومن الخلايا تتكون الأنسجة ، ومن الأنسجة تتكون الأعضاء ، ومن الأعضاء تتكون الأجهزة . وهل الإنسان إلا مجموع هذه الأشياء ، ومن الطعام والشراب تكون الإفرازات التى تذهب إلى الأمعاء والمثانة ، هل ينكر أحد على وجه الدنيا أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، ومن كان شأنه كذلك فحتم عليه أن يذهب إلى الخلاء . . . تعالى

(١) من آية ١٨ من سورة المائدة .

الله عن ذلك علوا كبيراً ، قال جل شأنه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ [(١)].
والمراد بالكلمة التى بشر بها مريم، هو قوله تعالى:﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [(٢)].
قوله جل شأنه : ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴾ أى أنه ذو قوة ووجاهة عظيمة : فهو فى الدنيا ، له وجاهته فى قلوب المؤمنين بالله ، وهو فى الآخرة له شفاعته ومكانته عند الله ، فهو من أولى العزم من الرسل ، وهو من المقربين من الله وجنته ورضوانه ﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم﴾ [(٣)] . ومن صفاته أنه يكلم الناس فى المهد، أى وهو فى أيامه الأولى بعد مولده ، فقد قال لأمه ساعة الولاده ، وبعد أن أخرجه الله من رحمها :﴿ لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون*وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ [(٤)] ومعنى قوله تعالى : ﴿ وكهلا ومن الصالحين ﴾ أى كما كلمهم فى المهد كذلك يكلمهم فى سن الكهولة ، وهى من الثلاثين إلى الأربعين [(٥)] ، ومن الصالحين أى هو صالح من ذرية قوم صالحين ، وقد أخبرنا النبى ﷺ عن الذين تكلموا فى المهد ، وقد تعجب عندما تعلم أن أكثرهم تكلموا دفاعاً عن الأعراض التى حاولت الكلاب أن تنهشها ، وذلك لما للأعراض من قدسية ومكانة .

الذين تكلموا فى المهد

روى الإمام مسلم بن الحجاج : بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وكان رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعة ، فكان فيها ، فأتته أمه ، وهو يصلى ، فقالت : يا جريح . فقال : يا رب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب أمى وصلاتى ؛ فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج : فقال : أى رب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه الموسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعياً كان يأوى إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت هو من جريج ، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه البغى فولدت منك ، فقال : أين الصبى .

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة الزخرف .
(٢) الآية : ٤٠ من سورة النحل .
(٣) الآيات : ١٠ ـ ١٢ من سورة الواقعة .
(٤) الآيات :/٢٤ ـ ٣٦ من سورة مريم .
(٥) وذلك عندما بدأ انتقاد الفريسيين والكتبة فى الهيكل .

فجاءوا به ، فقال : دعونى حتى أصل فصلى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن[١] فى بطنه ، وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى ، قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب !! قال : لا . أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا . وبينا صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا فترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، فقال ، اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع ، قال:[٢] فكأنى انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فمه ، فجعل يمصها ، قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت . . سرقت ! وهى تقول : « حسبى الله ونعم الوكيل » فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ؛ فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فهناك تراجعا الحديث ، فقالت : حلقى : مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت ، فقلت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ! فقلت : اللهم اجعلنى مثلها ، قال : إن ذاك الرجل كان جباراً ، فقلت : اللهم اجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق ، فقلت :اللهم اجعلنى مثلها » .

وقد أخرج البخارى هذا الحديث فى كتاب الصلاة باب إذا دعت الأم ولدها فى الصلاة ، وفى كتاب أحاديث الأنبياء باب ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾ الآية .

شرح الحديث

(لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة الخ)

المهد هو وطاء الصبى وكل ما يسوى له وقد يكون سريره ، وعن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾[٣] حجر أمه ، وقد ذكر فى هذا الحديث الثلاثة : وهم عيسى عليه السلام ، وصبى جريج ، والصبى المتعوذ من الجبار أن يكون مثله ، ولم يذكر غيرهم ، وقد ثبت فى الروايات الأخرى تكلم غير هؤلاء ،فمن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم ، من حديث صهيب فى قصة أصحاب الأخدود المذكورة فى آخر الصحيح ، وهو : أن امرأة جىء بها لتلقى فى النار ومعها صبى يرضع فتقاعست[٤] ، وقال لها : « يا أمه اصبرى فإنك على الحق » فإذا انضم هذا إلى الثلاثة صاروا أربعة . وروى أحمد والبزار وابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله عنه : لم يتكلم فى المهد إلا أربعة ، فذكر الأولين المذكورين فى حديث مسلم ، ولم يذكر الثالث ، وذكر شاهد يوسف ، والصبى الرضيع الذى قال لأمه وهى ماشطة بنت فرعون لما أردوا إلقاء أمه فى النار : اصبرى يا أمه فإنا على الحق .

وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبى هريرة ، فإذا ضممنا الاثنين الزائدين اللذين جاء بهما الحديث صاروا ستة ، وذكر الضحاك فى تفسيره أن يحيى عليه السلام تكلم فى المهد ، أخرجه الثعلبى . فإن كان هذا ثابتا صاروا سبعة .

(١) أى دفع بأصبعه فى بطن الصبى دون إيذاء .
(٢) القائل أبو هريرة - روای الحديث عن رسول الله ﷺ .
(٣) من الآية : ٢٩ من سورة مريم .
(٤) تراجعت وقاومت الالقاء فى النار .

وذكر البغوى فى تفسيره أن إبراهيم الخليل تكلم فى المهد أيضا ، ومما ينبغى أن يعلم أنه اختلف فى شاهد يوسف فقيل كان صغيراً ، وهذا أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ، وأخرج عن ابن عباس أيضا ومجاهد أنه[1] كان ذا لحية ، وعن قتادة والحسن أيضاً كانَ حكيماً ، فإذا استبعدنا شاهد يوسف الذى اختلفت الرواية[2] فيه ويحيى وإبراهيم اللذين لم نتأكد من ثبوت روايتهما ، كان المتكلمون فى المهد خمسة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نوفق بين هذا وبين قوله ﷺ : (ولم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة) ؟ .

وقد سلك العلماء فى الجواب عن هذا مسالك ، فقال الإمام القرطبى « فى هذا الحصر نظر » ولعله ﷺ إنما أوحى إليه أولاً بثلاثة أخبرها ثم بعد ذلك أوحى إليه بما شاء الله تعالى مما أخبر به فى الأحاديث الأخرى[3] .

وقال الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « يحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد أما كلام غيرهم من الأطفال ففى غير المهد » ، ولكن يعكر عليه أن فى رواية ابن قتيبه : أن الصبى الذى طرحته أمه فى الأخدود كان ابن سبعة أشهر ومثله لا شك يكون فى المهد ، فما قاله النووى من أن الطفل الذى طرحته أمه فى الأخدود لم يكن فى المهد غير صحيح .

فإن قيل كلام هؤلاء الذين تكلموا فى المهد ؛ أكان بخلق العقل والتمييز الكاملين لهم ؟ أم بإجراء الكلام على ألسنتهم من غيرتعقل له ؟قلناقد أجاب على ذلك الإمام القرطبى فقال : « ثم كلام عيسى عليه السلام هو بأن الله تعالى خلق له فى المهد ما خلق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى حال كمالهم من العقل والفهم كما شهد القرآن ، وأما غيره فيحتمل أن الله تعالى خلق فيه عقلا كما يخلقه فى الكبار ، ويحتمل ان الله تعالى أجرى ذلك الكلام يعنى على لسانه وهو لا يعقل ، كما خلقه فى الذراع والحصى مع بقائهما على جماديتهما » .

هذه نبذة عن الذين تكلموا فى المهد ذكرناها بمناسبة الكلام عن عيسى ابن مريم فى قوله تعالى : ﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ﴾ .

قوله جل شأنه : ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ﴾ . أداة الاستفهام هنا ﴿ أنى ﴾ ومعناها كيف ،وهذا الاستفهام لا يقصد به الاستبعاد فهى تعلم أن الله على كل شىء قدير ؛ لكن تريد أن تستفهم عن الكيفية ! ولذا جاء الجواب : ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ . أى أنه سبحانه وتعالى الذى خلق الأسباب والمسببات وجرت العادة على ذلك قادر أن يخرق العادة بقدرته فيغنى المسببات عن أسبابها ؛ وإلا فمن أبو آدم ومن أمه ؟

---

(١) أى أن إبراهيم كان ذا لحية وتكلم فى المهد .

(٢) اختلاف الرواية فى صغره أو كان كبيرا بالغا عاقلا .

(٣) نص كلام القرطبى : « ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة » بالحصر فإنه أخبر بما كان فى عمله مما أوحى إليه فى تلك الحال ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به » ص ٩١ ج ٤ .

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾(١) ، **والله جل شأنه** لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان علياً قديراً .

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .(٢)

ثم أخذت الآيات بعد ذلك تبين النعم الجليلة التى أنعم الله بها على المسيح ابن مريم قال جل شأنه : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ المراد بالكتاب : الكتابة والخط ، أما الحكمة فهى علم غزير وحكم صواب وعمل موفق ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾(٣) والتوراة هو الكتاب المنزل على نبى الله موسى وبه أحكام وتشريعات ، والانجيل هو الكتاب المنزل على نبى الله عيسى ، وبه وصايا وتوجيهات ، وقد جاء الإنجيل مصدقاً لما فى التوراة قال تعالى : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾(٤) وجاء القرآن الكريم مصدقاً لما أنزل الله فى التوراة والانجيل ، ومهيمنا على جميع الكتب . . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾(٥) . وقال جل جلاله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾(٦) .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم ، فصانه عن التحريف والتغيير والتبديل قال جل شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٧) .

قوله تعالى : ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وابرىء الاكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ﴾ .

هذا بيان لتخصيص رسالة المسيح ببنى إسرائيل ، فقد كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، إلا أن رسول الله ﷺ أرسل رحمة للعالمين : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾(٨) . وقال جل شأنه : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾(٩) ، وقال ﷺ : « كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، والمقصود بالأحمر غير العرب - وجعلت لى الأرض مسجداً وتربتها طهورا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة »(١٠) .

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة آل عمران . . وسيأتى الحديث عنها .
(٢) الآية : ٥٧ من سورة غافر .
(٣) الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٤٦ من سورة المائدة .
(٥) من الآية : ٤٨ من سورة المائدة .
(٦) الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة المائدة .
(٧) الآية : ٩ من سورة الحجر .
(٨) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٩) من الآية : ٢٨ من سورة سبأ
(١٠) رواه الشيخان .

ثم بعد ذلك عدد القرآن المعجزات وخوارق العادات التى أجراها الله على يدى عبده ونبيه ورسوله المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين والمراد بالخلق هنا التصوير إذ أن مادة الطين موجودة فكان المسيح يصور من الطين ما هو فى هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وحده .

وقد روى أنه عليه السلام لما أعملهم النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خفاش فأخذ طيناً وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه[١] .

أما إبراء الأكمه وهو الذى ولد فاقد البصر ، والأبرص وهو مرض بالجلد يورث به بياضاً ، فقد كان ذلك أيضاً من معجزات المسيح التى أجراها الله على يديه ، والمعجزة أمر خارق للعادة . يجريه الله على أيدى الأنبياء تصديقاً لهم مع عجز جميع المخلوقات عن الإتيان بمثله وتأتى المعجزة مناسبة لما اشتهر فى عصرها .

فالمصريون لما اشتهروا وبالسحر جاءت معجزة موسى إبطالاً لهذا السحر : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾[٢] . ولما اشتهر الطب فى عصر المسيح وأصبح فى درجة عالية من التفوق ؛ كانت معجزته إبراء الاكمه فيرتد بصيراً ، وإبراء الأبرص فيعود جلده كما كان جميلاً لا تشويه فيه .

ولما كان العرب قوم فصاحة وبلاغة ، جاء القرآن معجزة باهرة : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[٣] .

والمعجزة إما تكون قولية كالقرآن الكريم وإما تكون تركية كترك إحراق النار لإبراهيم مع وجود الأسباب وزوال الموانع : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾[٤] .

حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء لإبراهيم بالإفراج فورا ، إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها فقد نزع الله تعالى من النار الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق ، وجمع لإبراهيم بين البرودة والسلامة ، إذ لو اقتصرت النار على البرودة لتجمد إبراهيم من شدة البرودة ، ولو اقتصرت على السلامة لتألم إبراهيم من شدة حرارتها ، لكن البرودة مع السلامة جعلته يعيش الأيام التى قضاها فيها كأنه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقد تكون المعجزة فعلية كعصى موسى ويده ، ومعجزات المسيح ، وحنين الجذع وتسبيح الحصى وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ والإسراء والمعراج ، كل هذه معجزات أجراها الله على يدى حبيبه ومصطفاه ﷺ .

(١) القرطبى : ج ٤ ص ٩٤ .
(٢) الآيات : ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .
(٣) الآية : ٨٨ من سورة الإسراء .
(٤) الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ من سورة الأنبياء .

ولقد جمع الله له من المعجزات ما لا يحصره عد ، ولا يحيط به حد تكريماً له وتشريفاً . . وسبحان من قال له:﴿ وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴾[١] وقال له : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾[٢] .

إحياء الموتى

كان من المعجزات التى أجراها الله على يدى المسيح عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله ، فقد ورد أنه أحيا فتاة قبل دفنها . قال قومى بإذن الله : فقامت ، ثم ماتت بعد ذلك ، كما أحيا موسى بإذن الله قتيل بنى إسرائيل عندما ضرب ببعض البقرة ، قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾[٣] . وهذا كله بإذن علام الغيوب لا شريك له . كذلك جرت سنة القرآن الكريم : أنه يمهد بقصة زكريا ويحيى قبل أن يحدثنا عن قصة المسيح عليه السلام وخلقه ، لأن الله تعالى يعلم أن البشر يربطون المسببات بالأسباب ، وقد يغفلون أن خالق الأسباب قد يخلق بغير الأسباب ، قال يوسف النجار لمريم لما جاءت بالمسيح تحمله « يامريم إن فى النفس لشيئا . قالت له وما هو قال : أينبت زرع بدون ماء ؟ قالت له : يايوسف إن الذى خلق الزرع والماء قادر على أن يخلق الزرع بدون ماء .

نرى فى سورة آل عمران أن الله تعالى مهد بقصة زكريا فقال ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ . . الخ القصة . ثم قال بعد ذلك : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ﴾ وفى سورة مريم قال تعالى:﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾[٤] الخ الآيات. ثم قال : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾[٥] وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ﴾[٦] . . الخ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾[٧] . فلا يحسبن عاقل أن معجزات الأنبياء من صنعهم ؛ إنما هى خوارق للعادات ، أجراها الله تعالى على أيديهم ، تصدقاً لهم ، مع تحدى الخلق حتى يكون فى ذلك آية بينة ، ودلائل واضحة على صدق الأنبياء . أما خالق المعجزات فهو الله .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾[٨] . ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[٩] . قال العلماء تحت

---

(١) من الآية : ٧٩ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ١٦٦ من سورة النساء .
(٣) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٢ من سورة مريم .
(٥) الآية : ١٦ من سورة مريم .
(٦) الآية : ٨٩ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية : ٩١ من سورة الأنبياء .
(٨) الآية : ٦٢ من سورة الزمر .
(٩) الآيات : ١٠٢ - ١٠٤ من سورة الأنعام .

عنوان : (الطبيعة لا تعقل) من كتاب (فى العقيدة الإسلامية والأخلاق) : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادى فى مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة !!

بينما هو فى نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هى خالقة كل ما فى الوجود ؛ أو هى التى تمنح الحياة لكل حى فى الكون !!

فكيف يكون إلهاً ذلك الذى يقهره الإنسان ؛ ومن ثم يعبده ؟ ! إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشرى إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ،وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ؛وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخرى فألَّه الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار .

وجاءت الرسالات السماوية لتفسير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما فى الكون .

إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ؛ بل تطمح وتعشق العبودية ولهذا راحت فى عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة ، تحت اسم الطبيعة ، وتدعى أنها الخالقة !ولنا أن نسأل : ما هى الطبيعة ؟أهى النار والماء والتراب والهواء ؟أهى الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟أهى القوانين التى يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟أهى الصفات والخصائص التى تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق ؟ ! وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟أهى الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟

وللحقيقة : فأيا كان الجواب فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟

والإجابة نعرفها جميعاً ، : إنه كائن ناطق له إرادة ، ولهذا يقتضى المنطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع عناصر الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ؛ فهل استطاع أن يخلق أى شىء؟وهو جزء من الطبيعة ، وأرقى مافيها ؟!وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به،وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ ! لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟ !

والإنسان وهو السيد العاقل المدبر المختزن للمعلومات والمسخر لكل الآلات لم يخلقه ، لأنه مخلوق فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ ! وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ ! وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء مع كل ما يحيط بها من قوانين ــ الإنسان العاقل ؟ !

إن فاقد الشىء لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تغنى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن

لاسمع له ، والبصر فى الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولا أحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له !!

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل فى الإنسان ، وبإلغاء قانون السببية وقانون التناقض فالأرض تخلق الأرض ، والشمس تخلق الشمس ، والنبات يخلق النبات ، والإنسان يخلق الإنسان ، وهكذا . . أو قل : إن شئت إن صفات الإنسان تخلق الإنسان وصفات الأرض تخلق الأرض،ويعنى هذا أن المعدوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم البيولوجى بجامعات أمريكا : الحق أنه من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر،لا يسع الإنسان إلا أن يعترف بأن خالق هذا النظام وتلك الدقة البالغة ، والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه هو الله ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها . . . ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ؛ فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ ! لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى !! فليس مما يعقله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم ومبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد ، فإن هذا القانون ينادى قائلا : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفا » .

ويرد « سانتلانا » على من يقولون بأن الطبيعة هى الخالق قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول؟وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تآلفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها ،وكيف بقيت على تآلفها ؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ . . هذا وإذا افترضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شىء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد فى نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم . . هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء . . إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها،فمن باب أحرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً فى درجة الوجود وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع منه وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم مصمم العقل الألكترونى للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلى فيلد : « إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها . . إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ، ولابد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته : إنه هواللطيف الخبير .

الإنباء بالغيب

قال الله تعالى : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ هذه الآية الكريمة جاءت بعد بيان عدد من المعجزات التى أجراها الله على يد المسيح عليه السلام من إحياء الموتى إلى غير ذلك ومعنى ﴿ أنبئكم بما تأكلون وما تدخرون ﴾ . أنه كان عليه السلام يخبر الواحد منهم بما أكل وما سيأكل : وهذا أيضاً بوحى من الله ، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله . . قال جل شأنه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً ﴾[1] فإذا كان السيد المسيح ينبىء قومه بما أكلوا أو بما سيأكلون ، فهذا ليس من عندياته إنما هو بإنباء الله له ، قال جل شأنه : لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[2] وقال عظمت حكمته : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾[3] .

قوله تعالى: ﴿ ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ﴾ أى أن الشريعة المنزلة على المسيح لا تهدم ما جاء فى التوراة ؛ بل هى مكملة ومتممة ، وهكذا رسالات الأنبياء يمهد سابقهم للاحقهم ويكمل لاحقهم لسابقهم ، فهى كعقارب الساعة تبنى ولا تهدم ، وتضيف وتكمل ، فالثوان تكون الدقائق ، والدقائق تكون الساعات والساعات تكون الليل والنهار وهكذا دواليك .

قول تعالى: ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾ لقد حرم الله تعالى على اليهود أموراً ؛ جزاء بغيهم قال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أوما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[4] ، وقال جلت قدرته : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾[5] فلما بعث المسيح أنزل الله فى شريعته تخفيفاً ، فأحل الله تعالى على لسان المسيح بعض أحكام كانت تفيد تحريم أشياء عليهم ، من ذلك أنه أباح لهم لحوم الإبل والسمك والشحوم والعمل يوم السبت .

قوله جل شأنه: ﴿ وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ المراد بالآية هنا المعجزات التى سبق بيانها من النفخ فى الطين بعد تصويره فيكون طيراً بإذن الله وإبراء الأعمى والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله، والإنباء بما أكلوا أو ما سيأكلون بإذن الله وإنما ذكرها هنا مجملة فى قوله تعالى : ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ ليبنى عليها الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله .

قوله تعالى : ﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ هذا كقوله ﷺ لسفيان بن عبد الله ، وقد سأله سفيان فقال يا رسول الله : قل لى فى الإسلام شيئاً لا أسأل بعده أحداً غيرك ، فقال له مبعوث العناية الألهية : ﴿ قل

(١) الآيتان : ٢٧ - ٢٨ من سورة الجن .
(٢) من الآية : ١٨٨ من سورة الأعراف .
(٣) للآية : ٦٥ من سورة النمل .
(٤) الآية : ١٤٦ من سورة الأنعام .
(٥) الآية : ١٦٠ ، ١٦١ من سورة النساء .

آمنت بالله ثم استقم ﴾(١) نعم ؛ وهل الاستقامة إلا فى طريق الله ؛ إن إقرار المسيح بالربوبية لله دليل قاطع وبرهان ساطع على أنه مخلوق ومولود من رحم أمه،وتلك خصائص صفات البشر،ثم بعد ذلك يؤكد هذا المعنى بأنه عبد الله فيقول : ﴿ فاعبدوه ﴾ كما فى قوله جل شأنه : ﴿ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾(٢) . وقد شاءت حكمة الله أن يختم سورة مريم بقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾(٣) .

إن الصراط المستقيم هو توحيد الله وعبادته وحده ، فكل المخلوقات من السوس إلى الفرس ومن السماء إلى الأرض ، لو سألتها من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوقة للواحد الديان . كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ورضا كل يائس ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه - وكما قال العلماء : « إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين » ، فإن التوحيد الخالص والعبادة الخالصة أقرب طريق إلى الجنة ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾(٤) ، وقال جل جلاله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)(٥) .

مع المسيح

* فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ

(١) رواه الشيخان .
(٢) الآيات : ٣٠ - ٣٦ من سورة مريم .
(٣) الآيات : ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .
(٤) الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآيتان الأخيرتان من سورة الشورى .

ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

المفردات : فى الأساس : أحسست منه مكراً ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسسنا منه خيرا وهل تحس من فلان بخير وفى الكشاف : (أحس) : علم علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس و ﴿ الأنصار ﴾: واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف و ﴿ **الحواريون** ﴾ : واحدهم حوارى وحوارى الرجل صفيه وناصره ، (والمكر) تبرير خفى يفضى بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعماله فى التدبير السىء ،وإن كان يستعمل فى الحسن والسىء معاً ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾[١] . . والداعى إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره لجهله ، فكانت حاجة المربى أو القوّام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه ، مثل الوصول إليه . . و (التوفى) : أخذ الشىء وافياً تاماً ، ثم استعمل بمعنى الإماتة ، كما قال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾[٢] . و﴿تطهيره ﴾ من الذين كفروا : براءته مما كانوا يرمونه بتهمة أمه بالزنا .

هذا مشهد قرآنى اشتمل على كثير من المواقف الناطقة بالحق والعدل والقسطاس المستقيم ، فقد سبق من الآيات ما يفيد أن السيد المسيح عليه السلام أعلن كلمة التوحيد عالية ، فقال : ﴿إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾[٣] . وهذه الركيزة الأولى والقاعدة الأصيلة فى رسالات الأنبياء ، فقد بعثوا لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد،فكان رد الفعل لهذه لكلمة أن صدق البعض وكفر البعض ، وهذه عادة الناس مع الأنبياء ، فقد قال قوم سيدنا محمد ﷺ ـ كما أخبر القرآن : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾[٤] ، هذا وقد دخل قومه بعدئذ فى دين الله أفواجاً ، وهذا منطوق قوله جل شأنه : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾[٥] . وقال قوم المسيح عليه السلام : ﴿ نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ وقال آخرون ما قالوا : من الافتراء الذى يؤدى إلى الكفر ، قال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم

---

(١) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .
(٢) من الآية : ٤٢ من سورة الزمر .
(٣) من سورة آل عمران وقد سبق الحديث عنها .
(٤) الآيتان : ٤ ، ٥ من سورة « ص » .
(٥) سورة النصر .

قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾[١] ، وهكذا : آمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فلما علم عيسى منهم الكفر نادى : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون ﴾ وهم الأصفياء ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى الناصرون لدينه المعلنون لكلمته ﴿ آمنا بالله ﴾ وصدقنا أنه رب العالمين ، تصديقاً قلبياً جازماً ﴿ واشهد ﴾ يا نبى الله ﴿بأنا مسلمون ﴾ . وهكذا فالأنبياء جميعاً عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . ثم أضافوا ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ الذى جاءنا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ على ذلك الإيمان والاتباع .

أما الطائفة الأخرى : فقد فكرت ودبرت لقتل المسيح بمساعدة الرومان وكادت له ، ونسيت أوتناست أن يد الله تعمل فى الخفاء ، وأنه سيفسد مكرهم وخداعهم وتدور الدائرة على من مكر ، فإن هناك إلهاً قادراً عالماً علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وثلاثة إذا كن لك كن عليك : البغى ، والمكر والنكث ، قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[٢] وقال جل شأنه : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾[٣] وقال تبارك اسمه : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾[٤] .

لقد مكروا ودبروا ليصلوا إلى قتل نبى الله . والله تعالى دبر لينتقم وهو خير من يدبر وينتقم فألقى شبه المسيح على من مكر به ، ورفع المسيح إليه ونجاه ، وقتل صاحب المكر السيء قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[٥] .

قال جل شأنه: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ إذ أنه تعالى لايظلم أحداً ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٦] . ومن خير الله تعالى أنه رفع المسيح روحاً وجسداً قال سبحانه ممتناً عليه : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ .

هذه من نعم الله التى أنعم الله بها على المسيح . والوفاة تطلق ويراد بها كثير من المعانى فقد يقصد بها : توفية الأجر لأصحاب الدعوات والرسالات والمجاهدين والمسيح منهم ، بل من أوائلهم ، لأنه من أولى العزم ، وقد تطلق الوفاة ويرادبها النوم قال تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾[٧] . وقد يراد بالوفاة الموت ، قال تعالى على لسان المسيح يوم القيامة: ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾[٨] . أى فلما أمتنى فى الدنيا قبل القيامة ، كنت أنت الرقيب عليهم . والذى نختاره فى قوله تعالى لعيسى : ﴿ إنى متوفيك ﴾ أى متوفيك أجرك على ما قدمته لهؤلاء القوم من نصح ، وعلى صبرك على أذاهم ، وما بذلوه فى سبيل قتلك ، لأن الآية سبقت لبيان ما أنعم الله به على المسيح ، بدليل قوله تعالى بعد

(١) الآيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ٢٣ من سورة يونس .
(٣) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .
(٤) من الآية : ١٠ من سورة الفتح .
(٥) الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .
(٦) من الآية : ٤٤ من سورة يونس .
(٧) من الآية : ٦٠ من سورة الأنعام .
(٨) من الآية : ١١٧ من سورة المائدة .

ذلك ﴿ ورافعك إلى ﴾ أى منجيك من مكرمهم ، فقد خدعوا ودبروا ، وأنـا انتقمت منهم ورفعتك إلىَّ ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أى مما قالوه من سب أمك ورميها بالبهتان العظيم ، فقد قال تعالى :

﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ وقد رفع المسيح كما صرح بذلك القرآن الكريم ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾[1] وسينزل إلى الأرض فيكون نزولـه علامـة من علامات الساعة الكبرى ، قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : (لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية)[2] .

وفى القرآن الكريم آيات بينات سنزيد القـول فيها تفصيـلاً عندمـا نأتى إليهـا فى سورة النسـاء : والزخرف . قال تعالى فى سورة النساء: ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾[3] أى قبل موت المسيح هذا تفسير للآية بمعنى أن الإسلام سيعم أرجاء الأرض ، حيث يرفع المسيح راية الإسلام عالية ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾[4] وقال تعالى فى سورة الزخرف ﴿ وإنه لعلم للساعـة فلا تمترن بها ﴾[5] والضمير هنا عائد على عيسى الذى ذكر فى الآيات السابقة ، ومعنى علم الساعة أنه علامة على قربها ، وليس هناك ما يمنع عقلاً ولا شرعاً من نزول المسيح ودعوته الناس إلى الإسلام ، فلا داعى أبداً إلى الجدل العقيم فى هذه المسألة ، لأن النصوص فى الكتاب والسنة صريحة فضلاً عن كونها صحيحة .

قوله تعالى: ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ أى أن الذين اتبعوك فآمنوا بالله رباً وبك نبياً وبقولك لهم ﴿ إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[6] فهؤلاء مؤمنون ، ولا شك أن درجة المؤمن المعنوية والحسية أفضل عنـد الله من الكافرين ، ذا حُكم حَكم الله به . وهو مستمر إلى يوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿ **ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ خطاب من الله تعالى إلى الذين اختلفوا مع المسيح وطال عنادهم وكثر جحودهم ، فالله تعالى سوف يفصل بينهم ، فإنه يقضى بالحق وهو خير الفاصلين ، وسيكون الحكم والجزاء عادلاً ﴿ **فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾ . وقوله جل شأنه: ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ﴾[7] . أى بأنواع البلاء والشدائد والمصائب والهزائم : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[8] .

قوله سبحانه : ﴿ **وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم** ﴾ أى يجزيهم بالأجر غير منقوص كقوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فـلا يضل ولا يشقى ﴾[9] ، لا يضـل فى الدنيـا ولا يشقى فى

---

(١) من الآية : ١٥٨ من سورة النساء .

(٢) متفق عليه وتتمة الحديث « ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » واللفظ لمسلم .

(٣) من الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٤) تتمة الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٥) من الآية ٦١ من سورة الزخرف .

(٦) من الآية : ٦ من سورة الصف .

(٧) ، (٨) من الآية : ١٢٤ من سورة طه .

(٩) من الآية : ١٢٣ من سورة طه .

الآخرة . قال سبحانه : ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ كقوله جل جلاله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[1] . فالله تعالى إن يعاقبنا فبمحض العدل وإن يثبنا فبمحض الفضل : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ . أى إن ما سبق أن ذكرناه لك وتلوناه عليك من قصة امرأة عمران وزكريا ومريم والمسيح وقومه كل هذا جاءك به النبأ اليقين والذكر الحكيم الذى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[3] كقوله تعالى فى سورة هود : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[4] .

المسيح وآدم والمباهلة

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ المثل ﴾ : الحال العجيبة والشأن البديع ، الامتراء : الشك ، البهلة (بالضم والفتح) اللعنة والدعاء . يقال (بهلة الله) : أي لعنه ثم شاع استعماله فى مطلق الدعاء يقال فلان يبتهل إلى الله فى حاجته : أى يدعوه . و ﴿ القصص ﴾ : تتبع الأثر ومنه قوله تعالى ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾[5] أى تتبعى أثره ثم استعمل فى الكلام والحديث ، لأن القاص يتتبع المعانى ليوردها ، و﴿ العزيز ﴾ : أى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد . ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة التى لا يساميه فيها أحد .

قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ هذا إخبار من الله جل شأنه ، وخطاب لكل من أوتى شيئاً من التدبر والعقل ، فبالمثل يتضح المراد من القضية ، وضوحاً أجلى من الشمس فى ضحاها ، فإن عيسى : إن كان الله تعالى قد خلقه من أم لا زوج لها ، فهذا ليس أغرق فى العجب ولا أبعد من خلق آدم ،

---

(١) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية : ٤٠ من سورة النساء .
(٣) من الآية : ٤٢ من سورة فصلت .
(٤) الآية : ٤٩ من سورة هود .
(٥) من الآية : ١١ من سورة القصص .

فآدم لا أب له ولا أم ، إنما خلقه الله من تراب اختلط بالماء ، فصار طيناً ، تغيرت رائحته ، فكان حمأً مسنونا ، ثم جف فكان صلصالاً ، ثم ازداد جفافاً فكان كالفخار ، ثم سواه الله إنساناً بعد أن أتى عليه حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ، ثم نفخ فيه من روحه ، فكان آدم ، قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإ مسنون ﴾[3] وقال تبارك وتعالى : ﴿ خلق الانسان من صلصال كالفخار ﴾[4] وقال عز وجل : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾[5] . إن الذى خلق من الطين بشراً سوياً ، قادر بالأولى أن يخلق عيسى بلا أب ، فمن أبو آدم وأمه وما حقيقته ؟ ! أليس الطين الذى لا حياة فيه ، فكيف نستبعد على الإله القادر الذى خلق آدم بلا أب ولا أم أن يخلق عيسى بلا أب ، بل أن عيسى إذا قيس بآدم لكان خلقه أهون ، لقد خلق فى زحام عادى ، وكان بشراً عادياً ، وقضى مدة الحمل فى بطن أمه ، وتغذى بغذائها وتنفس بتنفسها ، وعاش كما تعيش الأجنة فى الأرحام . ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[6] إن الذى خلق آدم بالكاف والنون ، هو الذى خلق عيسى بكلمة منه ، وهى الكاف والنون ، ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ وكما قال سبحانه فى سورة مريم فى شأن المسيح : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾[7] قال هنا فى سورة آل عمران : ﴿ **الحق من ربك فلا تكن من الممترين** ﴾ وهذا أسلوب تعريض بالمتشككين المترددين فى قبول الحق ، وفيه تثبيت لدعوة الحق ، إذ الحق لا يتعدد ، لأنه من الواحد جل شأنه ، وقد كان الصادق المعصوم ﷺ إذا قام من الليل ليصلى أثنى على الله بما هو أهله فقال : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت ولك حاكمت أنت إلهى ولا إله إلا أنت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت »[8] .

قوله تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ .

كان سبب نزول آية المباهلة وما قبلها من أول سورة آل عمران فى وفد نجران : أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون فى عيسى ، ويزعمون فيه مايزعمون من النبوة والإلوهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم ، كما ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار وغيره : قال ابن إسحق فى سيرته المشهورة وغيره : « وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس

(١) الآية : ٢٠/ من سورة الروم .
(٢) من الآية : ٢/ من سورة الأنعام .
(٣) من الآية : ٢٦/ من سورة الحجر .
(٤) الآية : ١٤/ من سورة الرحمن .
(٥) الآيتان : ٧١/ ، ٧٢ من سورة ص .
(٦) الآية : ٦/ من سورة آل عمران .
(٧) من الآية : ٢١/ من سورة مريم .
(٨) رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما ورواه النووى فى الأذكار والكاندهلوى فى حياة الصحابة .

ابن حارث ، وزيد وقيس ويزن وابناه ، وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم ، وهم العاقب ، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد كان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلا من العرب من بنى بكر بن وائل ، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها ، وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب السابقة ، ولكن حمله ذلك على الاستمرار فى النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . . قال ابن إسحق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات : جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، قال : يقول من قابلهم من أصحاب النبى ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ «دعوهم» فصلوا إلى المشرق ، قال : فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الأيهم ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم ، يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة ــ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ــ وكذلك النصرانية فهم يحتجون فى قولهم هو الله ، بأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ، وذلك كله بأمر الله وليجعله الله آية للناس ، ويحتجون فى قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم وقد تكلم فى المهد بشىء لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله ، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم ــ تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والخاسرون علواً كبيراً ــ وفى كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ؛ فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول الله ﷺ : «أسلما» قالا : قد أسلمنا قال : «إنكما لم تسلما فأسلما» قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : «كذبتما : يمنعكما من الإسلام ادعاؤ كما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير» قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما ، فلم يجبهما ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، ثم تكلم ابن إسحق عن تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك قالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأىٍ فقالوا : يا عبد المسيح ؛ ماذا ترى ؟ قال : والله يا معشر النصارى : لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ؛ فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . . فأتوا النبى ﷺ فقالوا يا أبا القاسم : قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا فإنكم عندنا رضا ، قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : «ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين» ، فكان عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً[١] فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره ، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه» قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس : قال أبو جهل قبحه الله إن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ؛ قال : فقال : «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا» . وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة ، فواعداه على أن يلاعناه الغداة . قال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ؛ ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا ، وأقرا له بالخراج[٢] قال : فقال رسول الله ﷺ «والذى بعثنى بالحق لو قالا لا ، لأمطر عليهم الوادى ناراً» قال جابر : وفيهم نزلت ﴿ **ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم** ﴾ وقال جابر : ﴿ **أنفسنا وأنفسكم** ﴾ رسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب ﴿ **وأبناءنا** ﴾ الحسن والحسين ﴿ **ونساءنا** ﴾ فاطمة وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه .

قوله تعالى : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾ أى ما قصصناه عليك يا محمد وأخبرناك به فى شأن عيسى من أنه بشر يأكل كما يأكل البشر ويشرب كما يشربون ، وينام ويمرض ويموت : هذا كله حق ، وهو حق اليقين بل عين اليقين ، فمن كذب به ، فاعلم أن الله عليم بالمفسدين ، وما من إله إلا الله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين** ﴾ أى إن أعرضوا عن هذا الحق فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾[٤] واعلم بأن الله

---

(١) أى وقت الهجير يعنى جاء مبكرا وكانوا يؤخرون الظهر عن الهجير .
(٢) يعنى الجزية .
(٣) الآيات : ٧٢ - ٧٧ من سورة المائدة .
(٤) الآية : ١٢٧ من سورة النحل .

عليم بهم فإنهم مفسدون فى الأرض ، والله لا يحب المفسدين ، ولا يصلح عملهم فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

دعوة إلى أهل الكتاب

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾

المفردات : ﴿ **أهل الكتاب** ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ **تعالوا** ﴾ : أى اقبلوا ووجهوا النظر إلى ما دعيتم إليه . ﴿ **سواء** ﴾ : أى عدل وإنصاف من بعضنا لبعض و ﴿ **الإله** ﴾ : هو المعبود الذى يدعى حين الشدائد ويقصد عند الحاجة ، لأنه وحده ذو السلطة الغيبية و (الرب) : هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد هنا ماله حق التشريع من تحريم وتحليل ﴿ **مسلمون** ﴾ : أى منقادون لله مخلصون له ، ﴿ **تحاجون** ﴾ : أى تجادلون ، و (الحنيف) : المائل عن العقائد الزائفة ، (المسلم) : هو الموحد المخلص المطيع له .

وجه الله تعالى الدعوة إلى أهل الكتاب أن يقبلوا على كلمة حق وعدل وإنصاف ، لا تعصب فيها ولا انحياز ، إنما يكون الغرض من كلمة الحق : أن يعبدوا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئا ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ؛ يشرع الحلال والحرام ، إنما تكون التبعية فى ذلك للإله المعبود الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور الحكيم ، الخافض الرافع القابض الباسط المحيى المميت المعز المذل الواسع الجامع الباعث الوارث ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[1] ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ١١٥ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية : ٤٠ من سورة يوسف .

فإن تولوا عما دعوتهم إليه يا محمد ، فقل أنت وأمتك ﴿ اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ثابتون على دين الحق رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

وقد حوت هذه الآية وحدانية الإلوهية فى قوله : ﴿ ألا نعبد إلا الله ﴾ ووحدانية الربوبية فى قوله : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان ، فقد جاء إبراهيم بالتوحيد وجاء به موسى فقد ورد فى التوراة قول الله له : (إن الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض ولا تسجد لهن ولا تعبدهن) .

وكذلك جاء عيسى بمثل هذا ؛ ففى إنجيل يوحنا : (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) . وجاء خاتم النبيين محمد ﷺ بمثل هذا : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾[1] .

وخلاصة المعنى : أنا وأنتم نعتقد أن العالم من صنع إله واحد .

روى عدى بن حاتم قال : «أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب : فقال : (يا عدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ فى سورة براءة : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾[2] فقلت له : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال : (أما كانوا يحللون لكم ويحرمون فتأخذون بأقوالهم ؟ قلت نعم : فقال عليه الصلاة والسلام ، هو ذاك)[3] .

قوله تعالى: ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً . فأنزل الله ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ﴾ الآية .

﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ﴾ أى أيها اليهود والنصارى : لم تتنازعون وتتجادلون فى إبراهيم ويدعى كل منكم أنه على دينه ؟

وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين لما فى كتبهم من الثناء عليه فى العهد العتيق . وقد أنحى القرآن باللائمة على هؤلاء الذين نسبوا إبراهيم إلى اليهودية أو النصرانية ، وإلى التوراة أو الإنجيل ، مع أن العقل يقضى بأن المتقدم فى الزمان ــ كيف يكون ــ تابعاً لما سيأتى بعده وقد كان إبراهيم قبل أن تنزل التوراة والإنجيل فكيف يكون متقدماً وتابعاً لما بعده !؟ إن هذا دليل على الحمق والسفه ، ولذا قال الله فى ختام

(١) آية الكرسى ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ٣١ من سورة التوبة أو براءة .
(٣) رواه الشيخان واللفظ لمسلم .

الآية : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره : أجننتم فلا تعقلون ، وقد جاء هذا القول كما جاء فى آية أخرى فى سورة البقرة : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

معنى ﴿ **حاججتم فيما لكم به علم** ﴾ أى من أمر عيسى عليه السلام ، وقد قامت عليكم الحجة وتبين أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرط وقال إنه دعىّ كذاب ، ولم يكن علمكم بمانع من الخطأ .

قال تعالى : ﴿ **فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم** ﴾ أى فى شأن الخليل إبراهيم فقد وقعتم فى جهل مطبق لأحداث التاريخ وقواعد العقائد ، وهذا الجهل أدى بكم إلى الجدل العقيم الذى سلككم فى سلك الجاهلية جهلاً مركباً ، فليتكم تستمعون إلى ما قاله الله أصدق القائلين ، هو الذى يعلم وأنتم لا تعلمون .

قال الخليل بن أحمد[٢] : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فأسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك غافل فنبهوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك مكابر فاتقوه .

ثم بين الله تعالى حقيقة شأن إبراهيم فقال : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً** ﴾ أى مائلا عن العقائد الفاسدة ﴿ **مسلما** ﴾ لله ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفي لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٣] .

قال سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لكل نبى ولاة من النبيين وإن وليىّ منهم أبى وخليل ربى عز وجل) ثم قرأ ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾[٤] .

هذه الآية الكريمة ترد على اليهود والنصارى الذى زعموا كذباً وبهتاناً أن إبراهيم ينتمى فى العقيدة إلى دين كل منهم ، فقال الله تعالى : لستم أولى الناس بإبراهيم لأنكم قد انحرفتم عن الجادة ، وكفرتم بالله ورسوله ، بل إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه ونصروه وعبدوا الله وحده ، وهذا النبى محمد ـ ﷺ ـ ومن معه من الأنصار والمهاجرين هم أولى الناس بإبراهيم .

---

(١) الآية : ١٣٥ من سورة البقرة .

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى ، من أعلام القرن الثانى الهجرى أول من صنف علم أوزان الشعر وأحصى لسيبويه عالم انحو المعروف . والخليل أول من ألف المعاجم فى العربية .

(٣) الآيتان : ١٣١ ، ١٣٢ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ٦٨ من سورة آل عمران .

قوله تعالى:﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ أى هو الذى يتولى الصالحين بالرعاية والنصر المبين ﴿ إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾[1] .

حديث عن أهل الكتاب

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ *

المفردات : ﴿ **ود الشىء** ﴾ : أحبه ، ﴿ **طائفة** ﴾ : أى جماعة وهم ا الأحبار والرؤ ساء ، ﴿ **والآيات** ﴾ : هنا ما يدل على صدق نبوة محمد ﷺ ، ﴿ **وتلبسون** ﴾ : أى تخلطون ، ﴿ **وجه النهار** ﴾ ، أى أوله . تقول : أتيته بوجه نهار وصدر نهار وشباب نهار . ﴿ آمن له ﴾ : صدقه وسلم له ما يقول ، كما قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف:﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾[2] و ﴿ **الفضل** ﴾ : الزيادة والمراد به هنا النبوة .

هذا المشهد القرآنى الكريم اشتمل على المواقف المليئة بمكر اليهود ، والقبائح التى كادوا بها للإسلام ، والحقيقة أن اليهود هم اليهود لو تركت الثعالب مكرها والكلاب نباحها والحيات لدغها والثعابين عضها ؛ ما ترك اليهود عداءهم للإسلام ومكرهم به .

قوله تعالى:﴿ **ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم** ﴾ لو هنا مصدريه مثل أن ، ما ، كى ، أن ، والتقدير تمنت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾[3] ، وغفل هؤلاء عن أنهم بذلك يضلون أنفسهم وما يشعرون ، فإن يد الله

(١) الآية : ١٩٦ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية : ١٧ من سورة يوسف .
(٣)الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[1] ثم وجه الله تعالى إليهم هذين السؤالين توبيخاً وتقريعاً :

﴿ **يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ أى لم الكفر بالآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنتم تشهدون أنها حق ، قال تعالى:﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[2] .

قوله تعالى لرؤساء اليهود وأحبارهم : ﴿ **يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ المراد بالحق هنا نبوة الرسول محمد ﷺ وقد كتموها ابتغاء مناصب الدنيا والسيطرة على العامة ، فقد يخشون أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ورسالته فينصرفوا عن رؤسائهم وأحبارهم الذين كانوا يحلون لهم ويحرمون عليهم .

قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾[3] كما سبق فى حديث عدى بن حاتم ، فابتغاء الباطل من الجاه والرئاسة أضلهم وأعمى أبصارهم ، وهم يعلمون أن النبى ﷺ حق فإنه خاتم الأنبياء قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[4] .

قوله تعالى:﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ .

هذه إحدى ألاعيب اليهود ومكرهم بالمسلمين فقد تآمروا فيما بينهم أنهم إذا رأوا أصحاب النبى ﷺ أول النهار ، يؤمنون إيماناً ظاهرياً ، فإذا ما جاء آخر النهار كفروا ، وظنوا أنهم بذلك سيلقون الشكوك فى قلوب

(١) الآيتان : ٥٠ ، ٥١ من سورة النمل .
(٢) آخر آية فى سورة الفتح .
(٣) من الآية : ٣١ من سورة التوبة .
(٤) الآيات : ١٥٥ - ١٥٨ من سورة الأعراف .

المسلمين ، فيرجعون عن دينهم وينقلبون كفاراً ، إذ قد يظن ظانّ أنهم أهل الكتاب ، ويعرفون أكثر مما يعرف المسلمون .

ثم قال بعضهم لبعض ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ أى لا تصرحوا لأحد بما فى التوراة إلا إذا كان يهوديا، وذلك حتى لا يؤتى أحد من العلم مثل ما أوتيتم، وحتى لا يحتج عليكم أحد بما أوتيتم من عند الله، فيقيم عليكم البراهين بأنكم خاطئون في تكذيبكم برسالة محمد ﷺ ونبوته ، إذ كيف يكون ذلك ! ؟ وقد ورد ذكره فى التوراة والإنجيل ، فرد عليهم المولى تبارك وتعالى قائلاً : ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ أى ما أنزله إلى حبيبه ومصطفاه ، قال جل شأنه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[1] ورد عليهم مولانا تبارك وتعالى قائلاً: ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء** ﴾ ومن فضله تعالى أن تفضل على نبى هذه الأمة بجعل رسالته عامة للعالمين ، وأحل له الغنائم ولم تحل لأحد قبله ، وجعل الأرض مسجدا وتربتها طهورا ، تخفيفا على أمته ، ونصره بالرعب بين يديه مسيرة شهر ، وأعطاه الشفاعة ، وجعله أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وجعله الماحى الذى محا الله به الشرك ، والعاقب الذى لا نبى بعده ، فهو سبحانه وتعالى واسع الرحمة عليم بما فى القلوب ، فقد اطلع على قلوب أهل الأرض فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل الأرض ، فاختاره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبته ، ﴿ **يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ . ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾[2] قال المفسرون المقصود بالناس هنا محمد ﷺ وأمته .

مواقف لأهل الكتاب

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

---

(١) آخر آيات سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣

(٢) من الآية : ٥٤ من سورة النساء .

المفردات : ﴿ **تأمنه** ﴾ : من أمنته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنته بكذا وعلى كذا والمراد بقنطار : عدد كثير ، و ﴿ بالدينار ﴾ : العدد القليل ، و ﴿ الأميون ﴾ : هم العرب ، و ﴿ السبيل ﴾ : المؤاخذة والذنب ، و ﴿ بلى ﴾ كلمة تقع جوابا عن نفى سابق لتثبته والعهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان الالتزام من طرفين يقال عاهد فلان فلانا عهدا . ﴿ ويشترون ﴾ : أى يستبدلون والمراد بالعهد عهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون ، والمراد بالأيمان : الأيمان الكاذبة . والثمن القليل : هو العوض الذى يأخذونه أو الرشا ، وجعل قليلا لأن كل ما يفوت الثواب ويوجب العقاب فهو قليل ، و ﴿ **لا خلاق لهم** ﴾ : أى لا نصيب لهم . ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ : أى يغضب عليهم . ﴿ **ولا ينظر إليهم** ﴾ : أى يسخط عليهم ويستهين بهم . ﴿ **ولا يزكيهم** ﴾ : أى لا يثنى عليهم .

بعد أن بين سبحانه خيانة أهل الكتاب فى الدين ، وكيدهم للمسلمين ليرجعوا عن دينهم ، وصدهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها ، زعما منهم أنهم شعب الله المختار ، وأن الدين الحق خاص بهم ، لا يعدوهم إلى شعب آخر ولا إلى أمة أخرى ، أردف ذلك بذكر حال طائفة أخرى منهم ، تخون الأمانات وتستحل أكل أموال الناس بالباطل تأويلا للكتاب وغرورا فى الدين .

﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما** ﴾ أى ومن أهل الكتاب طائفة تشاكس المسلمين وتكيدهم ليرجعوا عن دينهم ، ومنهم طائفة أخرى تستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم : زعما منهم أن الكتاب لم ينههم إلا عن خيانة إخوانهم من بنى إسرائيل والخلاصة : أن أهل الكتاب طائفتان :

١ ـ طائفة تؤمن على كثير وقليل كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية من ذهب خالص فأداها إليه .

٢ ـ طائفة أخرى تخون الأمانة فإذا استودعتها القليل حجبته ولا تؤده إليك إلا إذا أدمت الوقوف على رأسها ، ملحا فى المطالبة أو لاجئا إلى التقاضى والمحاكمة ، ومن هؤلاء كعب بن الأشرف [1] استودعه قرشى دينارا فجحده ثم بين السبب فى فعلهم هذا فقال : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ أى أن ذلك الترك لأداء الأمانة من قبل أنهم زعموا أنه لا تبعة ولاذم فى أكل أموال العرب ، وخلاصة هذا أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له ، بل هو مبغض عنده محتقر لديه فلا حقوق له ولا حرمة لماله ، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه ، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين ، واحتقار المخالف الذى يستتبع اهتضام حقوقه . روى بن جرير : أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم الثمن[2] فقالوا : ليس علينا أمانة لا اقتضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم . فرد الله عليهم

---

(١) أو فنحاص بن عازوراء .

(٢) أى طلبوا ثمن ما باعوه لهم من قبل .

بقوله : ﴿ **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ أى وهم يعلمون كذبهم فى ذلك ، لأن ما جاء من عند الله فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأمين ، ولا أكل أموالهم بالباطل ، ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ ذلك حق العلم ، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ولجأوا إلى التقليد ، وعدوا كلام أحبارهم دينا ، وهؤلاء قالوا فى الدين بالرأى والهوى ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ليؤيدوا اراءهم وقد وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدعون .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير ، قال : لما نزلت ﴿ **ومن أهل الكتاب - إلى قوله - ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ قال النبى ﷺ : كذب أعداء الله ، ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾ أى بلى ، وعليكم فى الأميين سبيل ، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل ، وائتمنك على شىء ، وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له فى حينه ، دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحكمت الشريعة .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له ولا يجب الوفاء لغيره .

والعهد نوعان :

١ - عهد المرء لأخيه فى العقود والأمانات كما تقدم .

٢ - عهد الله تعالى ، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله .

واليهود لم يفوا بشىء منهما ، إذ لو وفوا بعهد الله لآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوا النور الذى أنزل معه ، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه .

وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد ـ المتقين الإخلاف والغدر ـ محبته تعالى ورحمته لهم فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا إيماء إلى : أن الوفاء بالعهود واتقاء الإخلاف فيها وفى سائر المعاصى والخطايا هو الذى يقرب العبد من ربه ، ويجعله أهلاً لمحبته ، أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله .

وفى هذا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى ، وهى الدعامة الأساسية فى كل دين قويم .

﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ . أى أن الذين يتعاهدون بعهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما سيتعاهدون عليه ويتعاقدون ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ،

وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ويتقوه فى جميع الأمور ، بما حلفوا عليه من قوله لهم :﴿لتؤمنن به ولتنصرنه-إلى قوله-ثمناً قليلاً﴾ هو العوض أو الرُّشا ـ أولئك لا نصيب لهم فى منافع الآخرة ونعيمها ، ويغضب عليهم ربهم ولا ينظر إليهم ،ولا يثنى عليهم يوم القيامة ، ولهم عذاب أليم هو الغلبة فى الألم قال القفال : « هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه فى الدنيا ، فإنما ذلك لسخطه عليه ، وقد يأمره بحجبه عنه هو ويقول : لا أكلمك ولا أرى وجهك ، وإذا جرى ذكره لم يذكر بالجميل » ا. هـ.
وصفوة القول : إن الله توعد الناكثين للعهد المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم بالعذاب الأليم ، وبأنهم يكونون فى غضب الله بحيث لا ترجى لهم رحمة ، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة .

ولم يتوعد الله مرتكبى الكبائر من الزنا وشاربى الخمر ولاعبى الميسر وعاقّى الوالدين بينما توعد ناكثى العهود وخائنى الأمانات ، لأن مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد التى لأجلها حرمت تلك الجرائم .

فالوفاء بها آية الدين البينة ، والمحور الذى تدور عليه المصالح العمرانية ، فمتى نكث الناس فى عهودهم زالت ثقة بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وأساس النظام ، والإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة والنكث بالعهد ، ألا ترى أن النبى ﷺ جعله علامة النفاق فقال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ﴾[1] .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أنس رضى الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال :(لا إيمان لمن لا أمانة له،ولا دين لمن لا عهد له) فما بال كثير من المسلمين ـ حتى المتدينين منهم ـ استهانوا بالعهود . وأصبحوا لا يحفظون الأيمان ويرون ذلك شيئاً صغيراً ، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد ، ويكبرون أمر المعاصى التى لم يتعودوها لعدم الإلف والعادة فقط ، مع أنها دون ذلك عند الله كما تدل عليه هذه الآية .

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف وحيى بن أخطب ؛ حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله ﷺ ، وحكم الأمانات وغيروها وأخذوا على ذلك الرشا .

وروى البخارى وغيره أن الأشعث بن قيس قال : « كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحد فيها ، فقدته إلى رسول الله ﷺ ، فقال:ألك بينة ؟ قلت لا : فقال لليهودى احلف فقلت : يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالى . فأنزل الله:﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله** ﴾الآية .

قال الحافظ ابن حجر والآية محتملة لأن يكون هذا سبب النزول أو ذاك ، والعمدة فى ذلك ما ثبت فى الصحيح .

أن الأيمان فى الإسلام لها خطورتها فعلى المسلم أن يعلم أن أشد الأيمان خطورة عند الله اليمين الغموس وهو الذى يتعمد صاحبه الكذب فيه كاليمين أمام القاضى ، وسمى غموساً لأنه يغمس صاحبه فى

(١) متفق عليه .

نار جهنم ، وعلى الحالف أن يعلم أن اليمين يجب مراعاتها من ثلاث جهات :

١ - إذا حلف فلا يحلف إلا للضرورة .
٢ - وإذا حلف فلا يحلف إلا بالله .
٣ - وإذا حلف وجب عليه أن يراعى الصدق فى يمينه .

قال ﷺ : « اليمين الغموس تذر الديار بلاقع »(١) أى خراباً يباباً لا خير فيها ولا بركة فى مالها أو أهلها .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أمرنا بالصدق ، وحذرنا من الكذب ، ففى حديث صحيح الثبوت صحيح العبارة ، يقول الهادى البشير : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر،وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)(٢) .

قال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك .

قيل لرسول الله ﷺ أيكون المؤمن كذاباً قال : لا .

وأشد الكذب ، الكذب على الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾(٣) .

وقال ﷺ : (من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(٤) وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين * والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾(٥) .

من كذبهم وافترائهم على الله

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٨)

المفردات : ﴿ يلوون ألسنتهم ﴾ من اللى وهو اللف أى يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة .

﴿وإن منهم﴾ لجماعة من أحبارهم وعلمائهم ، يفتلون ألسنتهم ويميلونها عن الآيات المنزلة : بأن يزيدوا فى كلام الله أو ينقصوا أو يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويقرأوا كلامهم بنغم وترتيل ؛ فيوهموا الناس

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) من الآيتين : ٣٧ من سورة الأعراف ، ١٧ من سورة يونس .
(٤) متفق عليه .
(٥) الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ من سورة الزمر .

بأنه من التوراة ، وأن الكتاب جاء بذلك ﴿ **لتحسبوه من الكتاب** ﴾ والواقع أنه ليس منه ، ﴿ **ويقولون على الله الكذب** ﴾ ويفجرون ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أنه ليس من عند الله ؛ ولكن من عند الشيطان والهوى .

فهم لا يعرِّضون ولكن يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم وفرط جرأتهم وغرورهم .

الرد على أهل الكتاب فى إشراكهم بالله

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المفردات : ﴿ **ربانيين** ﴾ نسبة إلى الرب وهو المتشدد فى الدين الملتزم طاعة الله ﴿ **أربابا** ﴾ جمع رب .

قيل إن رافع القرظى من اليهود ، ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله ﷺ : أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : (معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بغير عبادة الله . فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى) . فنزلت هذه الآية .

والآية فى جملتها تكذيب لأهل الكتاب الذين يعتقدون عبادة عيسى والعزير .

والمعنى لا يصح لبشر يمن الله عليه بالكتاب ، ويهديه إلى الحكمة والصواب فى فهم ما أنزل الله عليه ويؤتيه النبوة والرسالة ، ثم بعد هذا يقول للناس : كونوا عباداً لى من دون الله : أى اعبدونى وحدى أو اعبدونى مع الله ، فهذا هو الشرك بعينه ؛ ولكن يقول : كونوا أيها الناس ربانيين متمسكين بالدين مطيعين لله أتم طاعة ، بسبب كونكم تعلمون الكتاب لغيركم ، وبسبب كونكم تدرسونه وتتعلمونه ، ولا يعقل أن يأمركم باتخاذ الملائكة والأنبياء آلهة تعبد من دون الله ؛ كما فعلت اليهود مع عزير والنصارى مع المسيح !! أو يأمركم هذا النبى بالكفر والفسوق ، والعصيان بعد أن أرسل هاديا لكم وكنتم مسلمين منقادين لله بالطبيعة والفطرة التى فطر الناس عليها ؟

ويؤخذ من هذه الآية أن التعليم الدينى والدراسة للإسلام إن لم تكن مصحوبة بالعمل والطاعة كانت وبالاً على صاحبها بل كان كالسراج يضىء للناس ويحرق نفسه .

الميثاق المأخوذ على أهل الكتاب

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

المفردات ﴿ أخذ الميثاق ﴾ قبوله ، الميثاق : العهد المؤكد ،﴿الإقرار﴾ قرَّ الشىء إذا ثبت ولزم قراره مكانه وأقر بالشىء إذا نطق بما يدل على ثبوته ﴿ إصرى ﴾ الإصر : العهد المؤكد الذى يمنعه من التهاون .

هذه السورة من أولها إلى هنا يدور معناها على إثبات رسالة محمد ﷺ ؛ الذى يجب أن يؤمن به الكل ، وأن دينه الحق وهو الإسلام ، وكل من تقدمه من الأنبياء والأمم قد أخذ عليهم الميثاق : أن يؤمنوا به إذا أدركوه فما بال أهل الكتاب اليوم قد نقضوا العهد وأعرضوا عن هذا الدين .

ومعنى الآيات : واذكر يامحمد وقت أن أخذ الله الميثاق على الأنبياء ، وتدخل أممهم معهم تبعا لهم ؛ مهما آتيناكم أيها المخاطبون من كتاب وحكم ونبوة ، ثم جاءكم رسول هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله مصدقاً لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .

قال الله تعالى لمن أخذ عليهم الميثاق أأقررتم وقبلتم ذلك الذى ذكر من الإيمان بالرسول المصدق لما معكم ونصرتموه . أقبلتم عهدى وميثاقى المؤكد ؟؟

قالوا : أقررنا ونطقوا بما يدل على ثبوته ؛ قال تعالى : فليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم جميعاً لا يغيب عن علمى شىء .

﴿ فمن تولى ﴾ بعد هذا الميثاق المأخوذ قديماً ، ولم يؤمن بالنبى المبعوث فى آخر الزمان المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كما حصل من أهل الكتاب المعاصرين للنبى ﷺ ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ الخارجون من ميثاق الله الناقضون عهده .

وإذا كان الدين واحداً والرسل متفقين فى الأصول العامة للأديان ، فما بال أهل الكتاب المعاصرين ؟ أيتولون بعد هذا البيان ؛ فيبغون غير دين الله الذى هو الإسلام . ولله استسلم من فى السموات والأرض ، وخضعوا له وانقادوا لتصرفه بالتكوين والإيمان هنا ؛ إذ هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون له فكل ما يحل بالناس إن كان عن رضى فهم طائعون ، وإن كان عن غير رضى فهم كارهون ، وإلى الله المرجع والمآب .

إيمان المؤمنين بكل الأنبياء

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

المفردات : أى ﴿ **قل** ﴾ يامحمد أنت وأمتك ﴿ **آمنا بالله** ﴾ الواحد الأحد ﴿ **وما أنزل علينا** ﴾ نحن الأمة المحمدية ، وقدم الإيمان بالله على الإيمان بالمنَزَّل ، لأنه الأصل والأساس ، وقدم المنزل علينا على المنزل على الأنبياء السابقين لأنه هو الأصل ، فهو مصدر المعرفة ، وما سواه قد غير وبدل ؛ فلا يصلح أساساً للمعرفة ، والمنزل علينا هو القرآن الكريم ، ﴿ **وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط** ﴾ أولاده ﴿ **وما أوتى موسى** ﴾ من التوراة ﴿ **وعيسى** ﴾ من الإنجيل ﴿ **والنبيون** ﴾ كداود وسليمان وغيرهم ممن لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى .

لقد أمرنا الله بشيئين : الإيمان بالله والنبيين إيماناً لا نفرق فيه بين أحد منهم ، بل نؤمن بالكل على أنه نبى مرسل ، من قبل المولى جل شأنه لأمته يهديها سواء السبيل ولا نفعل كما فعل أهل الكتاب : يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ منقادون ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام** ﴾ الذى هو دين الأنبياء ، والدين الذى ارتضاه الله لعباده ، ومن يبتغ غيره ﴿ **فلن يقبل** ﴾ منه قطعاً ﴿ **وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ الذين خسروا أنفسهم ولم يزكوها بالإسلام فى الدنيا والآخرة .

حكم الكفر بعد الإيمان

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

ورد فى سبب النزول : أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت النبى ﷺ فى

كتابهم ، وأقروا بذلك ، وشهدوا أنه حق ، ولذا كانوا يستفتحون به على المشركين ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب ، وأنكروه وكفروا به بعد إيمان ، وروى فى أسباب النزول عدة روايات أخرى فى الذين ارتدوا بعد إسلامهم[1] .

﴿ **كيف يهدى الله قوماً** ﴾ كهؤلاء اليهود والنصارى ﴿ **كفروا بعد إيمانهم** ﴾ وشهادتهم ﴿ **أن الرسول حق** ﴾ وجاءتهم الآيات الواضحات على صدقه وصدق رسالته .

﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ لأنفسهم فهم قد عرفوا الحق ، وتنكبوا عنه فلا أحد أظلم لنفسه منهم ، و ﴿ **أولئك جزاؤهم** ﴾ أنهم مطرودون من رحمة الله و ﴿ **أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ فالملائكة يدعون عليهم بالطرد من رحمته وكذلك الناس كلهم .

﴿ **خالدين** ﴾ فى النار ﴿ **لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** ﴾ يمهلون بل سيؤخذون أخذ عزيز مقتدر هذا جزاؤهم ، إلا من تاب منهم بعد ذلك ، ورجع إلى الله وأصلح عمله وقلبه ﴿ **فإن الله غفور** ﴾ لما سبق ﴿ **رحيم** ﴾ بعباده حيث يقبل توبة التائب .

أصناف الكفار

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

هؤلاء الكفار ثلاثة أصناف : صنف كفر بعد إيمانه ، ثم تاب توبة صادقة من بعد ذلك ، فأولئك يقبل الله توبتهم إنه هو الغفور الرحيم .

وصنف كفر بالله ثم تاب ورجع ، ثم عاد إلى الكفر ، فلن تقبل توبته ، وقيل هم الكافرون يتوبون عن بعض الذنوب مع بقائهم على الكفر ، وهذا هو معنى ﴿ **لن تقبل توبتهم** ﴾ .

وصنف كفروا بالله وماتوا وهم كفار فلن يقبل من هؤلاء فدية مهما كثرت ولو كانت ملء الأرض ذهباً ، ﴿ **أولئك لهم عذاب أليم وما لهم فى الآخرة من ناصر ولا شفيع** ﴾[2] .

---

(١) روى القرطبى عن ابن عباس : أن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد والحق بالشرك ثم ندم ؛ فأرسل إلى قومه : سلوا لى رسول الله ﷺ فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدى الله كفروا بعد إيمانهم ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائى - القرطبى ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) قال قتادة وعطاء الخراسانى والحسن : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والانجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ والقرآن ، وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم .

الإنفاق أيضاً

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

بعد أن حاج الله أهل الكتاب ، وأبان أنهم يلبسون الحق بالباطل ، وأنهم لم يؤمنوا بالله بل يكتمون الحق ، وهم يعلمون أن محمداً ﷺ ، رسول الله قد بشر به فى التوراة والإنجيل ، بعد هذا : أراد أن يدلل على عدم إيمانهم بشح نفوسهم وبخلهم بالإنفاق . . والإنفاق لعمرى أكبر دليل على صدق الإيمان .

وأنهم لن يصلوا إلى البر ، ولن يكونوا بارين بالله إلا إذا أنفقوا مما يحبون ومن كريم ما يملكون ، أما وقد شحت نفوسهم بردىء المال ؛ فضلاً عن كريمه ، فهم بعيدون عن الصدق فى دعواهم الإيمان والطاعة لمولاهم ، ﴿ **وما تنفقوا من شىء** ﴾ سواء أكان كريماً أم رديئاً ﴿ **فإن الله به عليم** ﴾ ولا يخفى عليه إخلاصكم ورؤ ياكم .

